مقدمات في

علم الكلام

الدكتور محمد زرمان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة باتنة – الجزائر



للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار الأعلام

الأردن ـ عمان ـ العبدلي ـ مركز جوهرة القدس ـ الطابق ٢ ـ مكتب ٦٠٥
تلفاكس ٤٦٥٧٤٦٨ ـ ٠٦ ص.ب: ٩٢٧٥٦٣ عمان ١١١٩٠ الأردن
al_aalam@yahoo.comE-mail:



أ ـــ العـــدد الكـــبير للقضـــايا الـــتي طرحها المتكلمون وناقشوها ، واستنفذت منهم جهدا عقليا جبارا ، مما أدى إلى إثراء الفكر عن طريق النقاش والجدال والمناظرات ، بحيث لم يتركوا شاردة ولا واردة مما يتعلق بقضايا العقيدة إلا قـــتلوها بحثا وتنقيبا ، وتجاوزت هممهم عالم الشهادة فولجوا عالم الغيبيات ، وحاولوا بكل الوسائل تكييفه مع القدرات العقلية ، وقياسه بأدواقم

ب ـــ أن عـــلم الكلام قد أتاح لنخبة ممتازة من القمم الفكرية أن تبرز في مجال البحث الكلامي والفلسفي ، وأن تبين عن قدرات عقلية فذة في صياغة العقـــائد صياغة فلسفية ، وأن تصنف فيه آثارا خالدة لا يقل أثرها في الفكر الإنســـاني عـــن آثـــار نوابغ الفلسفة اليونانية من أمثال : أبي الهذيل العلاف ، وإبراهـــيم الـــنظّام ، وأبي هاشم الجُبَّائي ، وأبي الحسن الأشعري ، وأبي منصور الماتـــريدي ، وأبي حـــامد الغزالي ، وفخر الدين الرازي ، وأبي بكر الباقلاني ، والقاضـــي عـــبد الجبار ، وإمام الحرمـــين أبـــي المعالي الجويني ، وعضد الدين الأيجي ، وسعد الدين التفتازاني وغيرهم .

جـــــ ـــ أن علم الكلام قد أثمر حركة تأليف واسعة ، حيث وضع فيه المتكلمون مئات بل آلاف المصنفات التي تضمنت آراءهم ومذاهبهم ، مما يدل عـــلى ازدهـــار الحـــركة الفكرية ، ورواج سوق الكتب ، ونشاط حركتها ، وتجـــاوب المجتمع مع ما يصدر عن هؤلاء المفكرين ، كما يدلّ أيضا على غزارة الفكـــر الكلامي وتنوعه ، وخصوبة روافده ، ويعكس أيضا جو الحرية الفكرية والمناخ العلمي المزدهر الذي تمتع به العلماء في ظلّ الحضارة الإسلامية .

وقـــد تضافرت جملة من الدوافع التي حفزتني للكتابة في هذا الموضوع أذكر منها :

– إعـــادة قـــراءة هذه التجربة الفكرية الرائدة والغنية قراءة جديدة ، وبخاصة بعد أن طبع كثير من مصادرها المخطوطة ، أو تلك التي كانت في حكم المفقـــودة ، ومحاولة الوقوف على جوانبها الإيجابية والسلبية للاستفادة منها في حياتـــنا المعاصـــرة ، إذ لا نحسب أن الصراع الحضاري القديم الذي نشب بين الإسلام وخصومه يختلف في جوهره كثيرا عن الصراع الحديث .

– الرغـــبة في تبســـيط هذه المادة للطلبة، وإعادة تقديمها لهم في ثوب جديد يعرض لهم معالم علم الكلام الكبرى وخطوطه الرئيسية ، دون الغوص في جزئياته ومتاهاته ، ليتمكّن ذهن الطالب من رسم صورة واضحة لهذه الظاهرة الثقافـــية التراثية التي تداخلت فيها تيارات ومذاهب كثيرة ، واستمر عطاؤها الفكري قرابة خمسة قرون متواصلة .

– محاولـــة عرض أهم المصادر التي خلفها المتكلمون بمختلف مدارسهم ومذاهبهم وفرقهم لتكون في متناول كلّ من يرغب في معرفة نشأة علم الكلام وتطوره ، والاطلاع على أمهات المسائل التي عرض لها ، والوقوف على الطرق المتباينة التي تمت بها معالجتها ، وبخاصة وأن معظم المؤلفات والدراسات الحديثة في علم الكلام لا تهتم إطلاقا بمصادر علم الكلام ، ولا تفرد لها حيزا للتعريف بها ، مع أنها الأصل الأول الذي ينبغي الرجوع إليه في دراسة هذا العلم .

– أن الدراســـات والأبحاث التي تناولت علم الكلام ومدارسه وفرقه وأعلامه في العصر الحديث ، قد مالت ــ في أغلبها ــ إلى الدراسة المتخصصة التي تهتم بجانب معين من جوانبه ، فتعالجه بنوع من التحليل والتعمق والتدقيق ، بعـــيدا عن باقي جوانبه ومظاهره . أما محاولتنا هذه فقد جاءت شاملة ، حيث حولـــنا مـــن خلال فصول الكتاب تقديم عرض سريع عن نشأة وتطور الحركة


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

علم الكلام حركة عقلية رائدة في الفكر الإسلامي القديم ، نشأت نشأة طبيعية بعد أن أرست العقيدة الإسلاميـــة قواعدها ، وثبتت أركانها ، واستقرت في أعمـــاق النفوس ، وجرت من المسلمين مجرى الدم في العروق ، فظهرت في شـــكل محاولات عقلية لتفسير العقائد ، وربطها بالحركة الاجتماعية ، والبرهنة عـــلى ألوهـــية مصـــدرها ، ومحاولة إيجاد الحِكَم من الأحكام الشرعية ليتوافق التصديق القلبي مع الاقتناع العقلي .

وعـــندما غزت الساحة الإسلامية مختلف الديانات والمذاهب الفكرية والاتجاهـــات الفلســـفية ، قـــام علم الكلام بدور بارز في مواجهتها ، واجتهد المتكـــلمون في إيجاد الوسائل والأساليب وطرق الجدال المناسبة التي تكفل لهم كشف زيفها ، وبيان تهافتها ، ووهن أدلتها مقارنة بالعقائد الإسلامية .

وقد استطاعـــوا ــ في خضـــم هـــذا الصـــراع الحضاري العنيف ــ أن يخوضـــوا تجربة فكرية خصبة وغنية ، وأن يحفظوا للعقائد الإسلامية نقاءها وصفاءها ، وأن يبعثوا الحيوية في الفكر العربي بعد أن كان قبل الإسلام ضحلا ســـطحيا راكـــدا ، وأن يكســـبوه قوة وأصالة جعلته يتميز عن باقي الأنساق الفكـــرية الســـائدة ، ويضـــاهي الفلسفة اليونانية في قواعده المتينة وأصوله الراسخة ، ويتعامـــل معها نـــدّا لنـــدّ ، ابتداءً من استيعابها وهضمها ، مرورا بنقدها وتمحيصها ، وانتهاء بانتقاء ما يتلاءم منها مع الفكر الإسلامي وإدماجه فيه ، ونبذ ما يصادمه ، ويتناقض مع مرجعيته .

ومـــن بـــين المظاهر التي تدل على هذا الدّور الرائد الذي قام به علم الكلام في بعث الفكر الإسلامي وتأصيله :

الكلامية ، واجتهدنا في التعريف ببعض التعريف مصادر علم الكلام من خلال بيان أهمية الكتاب وأسباب تأليفه ، ومضمونه وقضاياه ومنهجه .

وفي ضوء هذه الأهمية التي يكتسبها علم الكلام يتساءل المرء : لماذا نشأ علم الكلام ؟ وكيف تطور ؟ وما هي المراحل التي مر بها ؟ وما هي عوامل ازدهاره وقوته وأسباب انحساره وتراجعه ؟ وهل نجح في تحقيق رسالته ؟ وما هو موقعه في الفكر الإسلامي قديما وحديثا ؟ وهل يمكن اليوم تجديده للإسهام في عملية المواجهة الحضارية الراهنة ، أم أن الأولى بنا إلغاؤه واستبعاده ، وإبداع فلسفة بديلة قادرة على التحدي ؟

وقد اتبعنا في هذه الدراسة المنهجين التاريخي والتحليلي . فحاولنا في القسم الأول أن نؤرخ لنشأة وتطور الحركة الكلامية والمراحل التي مرت بها ، وأهم العوامل التي تحكمت بها مع تحليل مواقف وآراء العلماء القدماء والمحدثين من مشروعية علم الكلام ، واعتمدنا في القسم الثاني بشكل خاص على المنهج التحليلي من خلال دراسة المصادر الكلامية دراسة تحليلية .

وبناء عليه ، فقد قسمنا الكتاب إلى سبعة فصول ، تناولنا في الفصل الأول مفهوم علم الكلام ومصطلحاته وغاياته . وعرضنا في الفصل الثاني للمراحل التي مر بها منذ نشأته إلى انحساره واضمحلاله ، وبينا في الفصل الثالث الأسباب الداخلية والخارجية التي كانت وراء نشأة وتطور علم الكلام وهي : الإمامة ، الآيات المتشابهات ، الترجمة والقوى المضادة ، وخصصنا الفصل الرابع لموضوع علم الكلام ومنهجه ، بينما أفردنا الفصل الخامس لبعض مصادر علم الكلام ، والفصل السادس لمواقف العلماء القدامى من علم الكلام الذي تراوح بين رافض ومؤيد ، والفصل السابع لمواقف العلماء المحدثين الذين

انقســـموا إزاءه إلى فريقين : فريق يدعو إلى إحيائه وتجديده وإعادة الفعالية له ، وفريق يدعو إلى استبعاده عن الدراسة تماما .

باتنة في 08 شوال 1422هـ الموافق لـ 2002/03/01 م

والله ولي التوفيق

الفصل الأول

علم الكلام مفهومه ومقاصده

أولا : تعريف علم الكلام :

علم الكلام هو أحد العلوم الشرعية التي نشأت في وقت مبكر من تاريخ الفكر الإسلامي ، واتخذت من العقيدة موضوعا لها . وقد لعب هذا العلم دورا مهما جدًّا في الحياة العقدية والفكرية الإسلامية طيلة قرون عديدة . وخلف لنا المفكرون المسلمون تراثا ضخما في هذا المجال . وحتى نتمكن من الإحاطة بجوانب هذا العلم المختلفة وجب أن نتعرض للتعاريف التي تناولته ، وسنستهل ذلك بالتعريف اللغوي .

جاء في "المصباح المنير" : << أن العلم هو اليقين : يقال علم يعلم إذا تيقن ، وجاء بمعنى المعرفة أيضا ، كما جاءت بمعناه ، وضمن كل واحد معنى الآخر لاشتراكهما في كون كل واحد مسبوقا بالجهل >>[1] . وجاء في المعجم الوسيط : << العلم هو إدراك الشيء بحقيقته ، والعلم : اليقين ، والعلم : المعرفة ، ويطلق العلم على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة كعلم الكلام ، وعلم النحو ، وعلم الأرض وما إليها >>[2] .

والعلم هو الملكة والقدرة التي يكتسبها العالم من دراسة العلم ومسائله ، وهو كذلك الاعتقاد الجازم المطابق للواقع[3] عن دليل .

---

[1] الفيومي ، أحمد بن محمد بن علي المقري ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، ص427 .

[2] مجموعة من الأساتذة . المعجم الوسيط ، ص624 .

[3] الجرجاني ، ، التعريفات . تحقيق وتعليق : د. عبدالرحمن عميرة ، ص200 .

أمـــا الكـــلام لغة فهو الأصوات المفيدة ، وعند النحاة الجملة المركبة المفيدة التي تكتفي بنفسها ، أو العبارة التامة المعنى[4] . وبتعبير آخر : الكلام هو اللفظ والقول الدال على معنى يحسن السكوت عليه .

أمـــا في الاصطلاح ، فقد تعددت تعاريف العلماء حول علم الكلام ، وإن كانت تتفق في أغلبها في نقطتين هامتين أولهما أنه يقوم على استعمال الأدلة العقلية والبراهين المنطقية ، وثانيهما أنه يتخذ من العقائد الدينية موضوعا رئيسا له . وفيما يلي جملة من هذه التعاريف :

قـــال الأيجي إن علم الكلام : << علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينـــية بإيراد الحجج ودفع الشبه ، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم >>[5] .

أمـــا الفـــارابي فيعرفه بأنه : << ملكـــة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعـــال المحمـــودة التي صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل >>[6] .

ويـــورد ابـــن خلـــدون تعريفا آخر فيقول أن علم الكلام : << علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة >>[7] .

بيـــنما يـــرى حاجي خليفة أنه : << علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها >>[8] .

---

[4] مجموعة من الأساتذة ، المعجم الوسيط ،ص796 .

[5] الأيجي ، عبد الرحمن بن أحمد ، المواقف في علم الكلام ، ص7 .

[6] الفارابي ، إحصاء العلوم ، تحقيق : د . عثمان أمين . ص107 ـ 108 .

[7] ابن خلدون ، عبد الرحمن ، المقدمة ،ص458 .

ويـــندرج في هـــذا الإطار أيضا تعريف التهانوي الذي يقول أن علم الكـــلام : << هـــو علم يقتدر منه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه >>[9] .

وبـــناء عليه ، فإن علم الكلام يقوم في مبناه على إثبات العقائد الدينية والدفـــاع عـــنها ضـــد منكريها باستخدام الأدلة العقلية ، والأسلوب المنطقي للـــبرهنة علـــيها والمقصــــود بالعقائد الدينية : التوحيد ، والنبوة ، والكتب السماوية ، واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

ثانيا : أسماء علم الكلام :

اشتهر علم الكلام بتسميات عديدة نظرا للدور الكبير الذي قام به في تـــاريخ الفكـــر الإســـلامي . ونظـــرا لحيوية موضوعه وأهميته البالغة بالنسبة للمســـلمين ، ونظـــرا لاستقطابه جهود مجموعة كبيرة جدا من علماء الإسلام ومفكـــريه ، وما تركه هذا الاهتمام من أثر بارز في الحياة الإسلامية على جميع الأصعدة ، ومن بين هذه الأسماء التي أطلقت عليه :

1 ـ الفقـــه الأكبر : فقد أطلق عليه الإمام أبو حنيفة الدينوري (ت 150 هـــ) اسم الفقه الأكبر لأنه يتعلق بالأحكام الاعتقادية الأصلية ، في مقـــابل الأحكام العملية الفرعية التي تندرج في علم الفقه المعروف[10] . وكان أبـــو حنيفة هو أول من استخدم مصطلح الفقه الأكبر للاعتقادات مقابلا للفقه الأصـــغر للعبادات ، وقد ألف رسالة في الموضوع أطلق عليها " الفقه الأكبر"

---

[8] خليفة ، حاجي . كشف الظنون ، ج2 ، ص326 .

[9] التهانوي ، الشيخ المولوي محمد علي ، كشاف اصطلاحات الفنون ، ص22 ــ 23 .

[10] المغربي ، د. علي عبدالفتاح ، الفرق الاسلامية ، ص15 .

حـــدد فيها للمسلمين عقائد أهل السنة تحديدا منهجيا [11] . وهي عبارة عن عـــرض مبسط للعقيدة الإسلامية في أسلوب موجز وعبارة مشرقة ، خال من الآراء الفلســـفية المعقدة ، سماها " الفقه الأكبر" لأن محورها يدور حول مسألة التوحـــيد والعقـــيدة ليوحي إلى قارئها بأن الاهتمام بهما يجب أن يأتي في المقام الأول لأن مدار الإيمان عليهما [12] .

وقـــد تكلم أبو حنيفة في هذه الرسالة عن أركان الإيمان ، وصفات الله تعـــالى ، وعقـــيدة أهل السنة في القرآن ، كما تكلم عن الأنبياء وعصمتهم ، وخـــص الرسول صلى الله عليه وسلم بعرض بعض صفاته وخصائصه ، وذكر الصحابة وتفاوتهم في مقاماتهم ، وبحث في المعجزات والكرامات ، ورؤية المؤمنين لله عـــز وجـــل ، وبعض علامات الساعة [13] . وهو يعد بذلك أول من أسس المدرسة الكلامية السنية الأولى .

2 ـ علـــم الـــنظر والاستدلال : لأنه يستخدم العقل لإثبات صحة ما ورد في النقل حيث أن المتكلمين يعتمدون على منهج البحث العقلي بالأســـلوب المـــنطقي لإثبات العقائد والبرهنة عليها ، وجعلوا مهمة النصوص الشرعية تقرير العقائد الدينية بأدلتها العقلية [14] .

3 ـ علـــم التوحـــيد والصفات : لأن أهم المسائـــــل التي يعالجها هي مسألة التوحيد الإلهي ، وتتريه الله سبحانه وتعالى ، وعلاقة الصفات

---

[11] النشار ، د. علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ج1 ، ص301 .

[12] أبو سليمان ، د. عبد الوهاب إبراهيم ، كتابة البحث العلمي ومصادر الدراسات الإسلامية ص269 .

[13] المرجع نفسه ، ص269 .

[14] عليان ، وزميله ، أصول الدين الإسلامي ، ص23 ـ 24 .

الإلهية بذاته ، وعلاقته عز وجل بالعالم ، وإثبات وحدانيته[15] . وقد عرفه محمد عـــبده بأنـــه : << علم يبحث فيه عن وجود الله ، وما يجب أن يثبت له من صـــفات ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه ، ومـــا يجـــوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم >> [16] .

وفـــرق التفـــتازاني في تعـــريفه بينه وبين الشريعة فقال : << إعلم أن الأحكام الشرعية منها ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية وعملية ، ومنها ما يـــتعلق بكيفية الاعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية . والعلم المتعلق بالأولى يسمى عـــلم الشرائع والأحكام ... وبالثانية علم التوحيد والصفات بما أن ذلك أشهر مباحثه وأشرف مقاصده >> [17].

4 ــ علم أصول الدين : من حيث أن موضوعه يتناول أصول الاعـــتقاد والديـــن وهـــي الإيمان بالله تعالى وتوحيده والإيمان بصفاته وأفعاله وأسمائـــه ، والإيمـــان بالكتـــب والرسل والملائكة ، والإيمان بالبعث والثواب والعقاب في الآخرة ، وتلك هي أصول الدين [18] . وقد عرف السيوطي علم أصول الدين بـــأنه << علم يبحث عما يجب اعتقاده >>[19] ، وسمى العلماء

---

[15] عبد الرزاق ، مصطفى ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص256 .

[16] عبده ، محمد ، رسالة التوحيد ، ص70 .

[17] التفتازاني ،. شرح العقائد النسفية ، تحقيق : كلود سلامة ، ص4 .

[18] المغربي ، عبد الفتاح ، الفرق الإسلامية ،ص15 .

[19] السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ، إتمام الدراية لقراء النقاية ، ضبطه وكتب حواشيه : الشيخ إبراهيم العجوز ، ص5 .

علم الكلام بعلم أصول الدين لأنه يبحث في أركان الدين وأعظم مبادئه وأول أهدافه وغاياته وهو الإيمان .

5 ـ علم العقيدة : من حيث أن موضوعه يتناول العقائد الإسلامية من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره . لأن العقيدة هي التصديق القلبي بكل الغيبيات التي جاء بها الوحي وهي التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى : { ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق أو المغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة }[20] ويعرفها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : { أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره }[21] وبذلك تكون العقيدة مرادفة للإيمان .

6 ـ علم الكلام : وهو الاسم المشهور والشائع بين المسلمين ، وبه عرف هذا العلم على مر العصور . وقد ظهرت هذه التسمية في عصر المأمون كما أشار إلى ذلك الشهرستاني في كتابه " الملل والنحل" حيث قال : << ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون فخلطت مناهجها بمناهج الكلام ، وأفردتها فنا من فنون العلم وسمتها باسم الكلام >>[22] .وقد اختلف العلماء في السبب الذي أدى إلى تسميته كذلك ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى منها :

---

[20] البقرة ، 177 .

[21] رواه البخاري ومسلم .

[22] الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ، الملل والنحل ، ج1 ، ص30 .

ـ منهم من قال إن سبب تسميته بعلم الكلام يكمن في أن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف في العقائد تتصل بكلام الله هل هو حادث أو قديم ، مخلوق أو غير مخلوق ، فسمي العلم الذي تخصص في الإلهيات بأشهر أجزائه [23] أي كلام الله وإلى ذلك يشير الشهرستاني في قوله : << وسمتها باسم الكلام ... لأن أظهر مسألة تكلموا فيها وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام >>[24] .

ـ ومنهم من رأى أنه أطلق عليه علم الكلام تمييزا له عن علم المنطق . لأن وظيفتهما تكاد تكون متشابهة ، فاختص علم الكلام ببيان طرق الاستدلال على أصول الدين فانتسب بذلك إلى العلوم الإسلامية ، أما المنطق فهو الذي يعتمد على بيان مسالك الحجة عند الفلاسفة ، لذلك أبدل الكلام بالمنطق للتفرقة بينهما [25] . قال الشهرتاني : << وسمتها بعلم الكلام ... لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فنا من فنون علمهم بالمنطق ، والمنطق والكلام مترادفان >>[26] .

ـ ومنهم من ذهب إلى أن سبب تسميته بعلم الكلام يعود إلى اعتماده الكلي على الدليل العقلي . فالمتكلمون في غالب جدالهم يعمدون إلى الحجج العقلية والبراهين المنطقية لإثبات العقائد ، وهم نادرا ما يستخدمون الأدلة

---

[23] المغربي ، علي عبد الفتاح ، الفرق الكلامية الإسلامية ، ص15 .

[24] الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص30

[25] عون ، د. فيصل بدير ، علم الكلام ومدارسه ،ص54

[26] الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص30

النقلية [27] لذلك سمي علم الكلام لأنه جهد بشري عقلي يعبر عنه قائله بالكلام دون الاستناد إلى الوحي .

ـ و ذهب بعضهم إلى أن هذا العلم كثر فيه الكلام مع المخالفين مالم يكثر في غيره ، فسمي بعلم الكلام ، أو لأنه بقوة أدلته كأنه صار هو الكلام دون ماعداه .

ـ بينما رأى آخرون أن البحث في أمور العقائد كان يسمى قبل تدوين هذا العلم كلاما . فلما دونت الدواوين وألفت الكتب في هذه المسائل أطلق على هذا العلم المدون ما كان لقبا لهذه الأبحاث قبل تدوينها [28] .

وقد أشار التفتازاني إلى جملة من الأسباب التي تفسر هذه التسمية فقال : << وسموا ما يفيد معرفة الأحكام العملية عن أدلتها التفصيلية بالفقه ، ومعرفة أحوال الأدلة إجمالا في إفادتها الأحكام بأصول الفقه ، ومعرفة العقائد عن أدلتها بالكلام لأن عنوان مباحثه كان قولهم : الكلام كذا وكذا ، ولأن مسألة الكلام كان أشهر مباحثه وأكثرها نزاعا وجدالا ... ولأنه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم ، كالمنطق للفلسفة ، ولأنه أول ما يجب من العلوم التي إنما تعلم وتتعلم بالكلام فأطلق عليه هذا الاسم لذلك ، ثم خص به ولم يطلق على غيره تمييزا ، ولأنه إنما يتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين ، وغيره قد يتحقق بالتأمل ومطالعة الكتب ، ولأنه أكثر العلوم خلافا ونزاعا فيشتد افتقاره إلى الكلام مع المخالفين والرد عليهم ، ولأنه ـ لقوة أدلته صار كأنه هو الكلام دون ماعداه من العلوم ، كما يقال للأقوى من الكلامين : هذا هو الكلام . ولأنه لا بتنائه على الأدلة القطعية المؤيد أكثرها

---

[27] عون ، د. فيصل بدير ، علم الكلام ومدارسه ، ص54 .

[28] عبد الرزاق ، مصطفى ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص265 .

بالأدلـــة أشـــد العلوم تأثيرا في القلب وتغلغلا فيه ، فسمي بالكلام المشتق من الكلم وهو الجرح وهذا هو كلام القدماء >>[29] .

وهذه الأسباب جميعا لها محلها وتقديرها في الدراسات الكلامية ، وكل واحـــد مـــنها يعتمد على وجهة نظر معينة وهي صحيحة ، فتعدد الأسباب في التسمية ناتج عن تعدد وجهة نظر الباحثين . وإن كنا مع بعض الدارسين نرجح أن أقـــوى سبب أدى إلى تسميته بعلم الكلام هو أشهر مسألة من مسائله والتي أثارت كثيرا من الجدل والخلاف هي كلام الله فسمي بذلك[30] .

ثالثا : مقاصد علم الكلام وغاياته :

لقـــد كـــان من أهداف العلماء المسلمين الذين مارسوا علم الكلام في بداياتـــه الأولى تثبيـــت العقـــيدة كما جاء بها الإسلام ، والمحافظة على نقائها وإشـــراقها ، والدفاع عنها ضد المهاجمين من الضالين أو الكافرين . لذلك فقد كرســـوا جهودهـــــم لبناء العقيدة على أساس صحيح باعتبارها ركن الدين وعموده ، وكان من بين مقاصدهم ما يلي :

1 ـــ أن يكون الإيمان بالعقائد مبنيا على أساس متين من الأدلة العقلية التي تجعله متجذرا في النفس ، لا تزعزعه الشبه و لا تنال منه الدعاوى .

2 ـــ تكويـــن جـــبهة دفاع قوية ضد هجومات الشرك ، والفلسفات الأجنبية التي حاولت التشكيك في أمهات العقائد الإسلامية .

3 ـــ أن يـــتمكن المؤمن ـــ بثبوت العقيدة في نفسه ـــ من العيش وفق الـــنظام الإلهي الذي يوفر له الاستقرار في حياته من خلال إقامة العدل بين بني الإنسان والتوازن في الكون بانقياده لشرع الله والتزامه بأوامره ونواهيه .

---

(29) التفتازاني ، شرح العقائد النسفية ، تحقيق : كلود سلامة ، ص5 ـــ 6 .

(30) صبحي ، أحمد محمود ، في علم الكلام ، ص19 .

4 ــ أن يفوز المؤمن في الآخرة بالأجر العظيم والثواب الكبير ، وينجو من العذاب المترتب على العصيان وسوء الاعتقاد والكفر .

5 ــ القيام بفرض مطالب به كل مؤمن ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته الأزلـــية وتتريهه عما يستحيل اتصافه به، والتصديق برسله على وجه اليقين ، اعتمادا على الدليل لا استرسالا مع التقليد [31] .

وقد ذكر الأيجي جملة من مقاصد الكلام منها :

1 ــ << ــ الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان ،ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات .

2 ــ إرشـــاد المسترشدين بإيضاح المحجة ، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة

3 ــ حفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبه المبطلين .

4 ــ أن تـــبني عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها وإليه يؤول أخذها واقتباسها .

5 ــ صـــحة النية والاعتقاد . إذ بها يرجى قبول العمل وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين >>[32] .

وعلـــيه فـــإن أعلى مقاصد علم الكلام تحصيل سعادة البشر في الدنيا والآخــــرة بإقـــرار العقائد الإيمانية في النفوس عن طريق العقل لتدعم الإقرار القلـــبي ، والدفـــاع عنها بدحض الشبه التي يثيرها بها المنكرون لها حتى يترقى الإنسان من حضيض التقليد إلى ذروة اليقين .

---

[31] أزمرلي ، اسماعيل حقي ، علم الكلام الجديد ، تحقيق : د. صبري خدمتلي ، ص18

[32] الأيجي ، عبد الرحمن بن أحمد ، المواقف في علم الكلام ، ص8 .

الفصل الثاني

علم الكلام نشأة وتطوره :

شهدت الجزيرة العربية منذ ظهور الإسلام تغيرا جذريا في جميع مناحي حياتها ، وانقلابا كاملا في كافة الأفكار والمبادئ التي كانت تحكم المجتمع ، فقد أخرجت الدعوة الإسلامية ــ التي قادها النبي صلى الله عليه وسلم ــ إلى الوجود أمة جديدة صاغها القرآن الكريم الذي التف حوله المسلمون يتلونه ، ويتدبرونه ، ويستمدون منه فلسفتهم في الحياة وأسلوبهم في الحكم والمعاملة ، وقد تمخض عن هذا الاهتمام الكبير ظهور اتجاهات فكرية متعددة كانت كلها انعكاسا للفهوم البشرية للوحي ومن أهمها :

ــ الحركة الفكرية السياسية المتمثلة في الفرق المختلفة كالشيعة والخوارج .

ــ الحركة الفكرية العقدية المتمثلة في الفرق الكلامية الإسلامية المتعددة

ــ الحركة الفكرية في مجال الفقه المتمثلة في المذاهب الفقهية .

ــ الحركة الفكرية الصوفية المتمثلة في المذاهب الصوفية .

وإلى ذلك يشير علي سامي النشار في قوله : << والحياة الإسلامية كلها ليست سوى التفسير القرآني : فمن النظر في قوانين القرآن العملية نشأ الفقه ، ومن النظر فيه ككتاب يصنع الميتافيزيقا نشأ الكلام . ومن النظر فيه ككتاب أخروي نشأ الزهد والتصوف والأخلاق . ومن النظر فيه ككتاب للحكم نشأ علم السياسة . ومن النظر فيه كلغة إلهية نشأت علوم اللغة ... إلخ ، وتطور العلوم الإسلامية جميعا إنما ينبغي أن يبحث في هذا النطاق : في

الـــنطاق القـــرآني نشأت وفيه نضجت وترعرعت ، وفيه تطورت ، وواجهت علوم الأمم تؤيدها أو تنكرها في ضوئه >>[1] .

وعـــلى هذا الأساس ، فإن علم الكلام هو أحد العلوم التي نشأت عن هذا التأثير العميق للقرآن في الحياة الإسلامية ، وقد مر بعدة مراحل يمكن إجمالها فيما يلي :

1 ـ المرحلة الأولى : مـــرحلة الإرهاصات . وهي المرحلة التي تم فيها تقرير العقائد الإسلامية من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وقد استغرقت هذه المرحلة العهد النبوي ومعظم العهد الراشدي . ولم يكن علم الكـــلام قـــد ظهر بعد . فقد كانت العقائد واضحة وضوح الشمس في أذهان المســـلمين ، وكـــانوا يستمدونها مباشرة من القرآن الكريم الذي حفل بمناهج إثبات العقائد عن طريق الدعوة إلى استخدام العقل والنظر ، والسمع لمعرفة الله

وقد نوه القرآن الكريم بالعقل أيما تنويه ، ودعا إلى استخدامه ، وذكره باسمـــه وأفعاله ما يقرب من خمسين مرة ، وجاء ذلك بصيغ مختلفة : << حيث تكرر 24 مرة بصيغة (تعقلون) بين صورة الرجاء (لعلكم تعقلون) وصورة الاستفهام (أفلا تعقلون) . وتكررت 22 مرة بصيغة (يعقلون) منها 10 صيغ بدون نفي ، و12 صيغة منفية بلا النافية (لا يعقلون) ، ومرة واحـــدة بصيغة (يعقلها) في قوله تعالى : { وما يعقلها إلا العالمون } [2] ، ومرة واحدة بصيغة (نعقـــل) في قولـــه تعالى : { لو كنا نسمع أو نعقل }[3] ، ومرة واحدة بصيغة (عقلـــوه) في قـــوله تعـــالى : { يسمعون كـــلام الله ثم يحرفـــونه من بعد ما

---

[1] النشار ، د. علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج1 ، ص295 ــ 296 .

[2] العنكبوت ، 43 .

[3] الملك ، 10 .

عقلوه }[4] >>[5] كما ذكر أيضا كلمة (أولو الألباب) أي أصحاب العقول في بضع عشرة موضعا .

ومعظم هذه الصيغ تشير إلى دور العقل في التمييز بين الحق والباطل ، وإدراكهما على حقيقتهما من خلال التفكير في ملكوت السماوات والأرض ، ومخلوقـــات الله الأخرى ، كما تشير أيضا إلى حاجة الإنسان إلى العقل والوعي والبصـــيرة في تعامله مع محيطه ، وتؤكد أنه المعول عليه في أمر العقيدة ، وأمر التبعة والتكليف ، وفي هذا كله تمجيد للعقل ، ودعوة إلى إقامة الحياة كلها على أساس التفكير السليم .

كما استعرض القرآن أيضا مختلف العقائد والفرق والأديان التي كانت تمـــوج بهـــا الجزيرة العربية ، ورد على أصحابها بالمنطق والحجة العقلية ، حيث جادل المشركين عبدة الأوثان ، وجادل الملحدين ، وعبدة الكواكب ، ومنكري المعـــاد ، و منكري النبوة ، كما أفرد حيزا لابأس به لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فحاورهم وكشف مواطن الزيف والتحريف في كتبهم المقدسة ،وردّ عـــلى دعوى التثليث وألوهية المسيح عليه السلام و قضية صلبه ...إلخ و علم المســـلمين كيف يقارعون العقائد الضالة و الفاسدة بالحجة و البرهان ، ووضع لهـــم قواعد الجدال مع من يخالفوهم في الاعتقاد : << ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن >> [6] .

وأجـــاب كذلك عن كل التساؤلات التي شغلت الفكر الإنساني منذ القـــدم ، و التي عبّر عنها في شكل نظريات فلسفية حاولت ـــ دون جدوى ـــ

---

[4] البقرة ، 75 .

[5] مكرم ، د. عبد العال سالم ، الفكر الإسلامي بين العقل والوحي ، ص11 .

[6] العنكبوت ، 46 .

أن تقدم تفسيرا مقنعا للكون والحياة ، حيث طهر القرآن صورة الذات الإلهية مـــن كـــل ماشابها من تصورات قاصرة وفاسدة وأسبغ عليهـــا صفات الجلالة والقـــدرة والعلم اللامتناهي التي تليق بها : <<ولم يترك نظرية أو مذهبا فلسفيا شغل به العقل الإنساني بدون أن يبحث فيه وأن يضع أصوله العامة >>[7] .

لكـــن الإسلام ــ في مقابل ذلك ــ وضع حدودا للعقل الإسلامي ، وأمره ألا يتجاوزها لأنه لن يتمكن من ارتيادها فقال عليه الصلاة والسلام : {تفكروا في الخلـــق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدروه قدره }[8] وقال أيضا { تفكروا في خلــــق الله ولا تفكــــروا في الله فــــتهلكوا } . لأن البحث في ذات الله وصفاته : << إنما هو تهجم من الإنسان على مقام لا يرقى إليه وهم متوهم و لا خيال متخيل ، وإنه لحق: أن كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك >>[9] .

وبذلـــك حـــدد الـــنبي الكريم الحيز الذي يجب أن يجول فيه التفكير الإســـلامي ، وينضـــبط بـــه لمعرفة الله تعالى عن طريق العقل حتى لا يشتط في استعماله في غير ما خلق له فيضيع في متاهات لا مخرج له منها .

وفي ضـــوء ما سبق ، يتبين لنا أن المبادئ الأساسية التي يقوم عليها علم الكلام قد توفرت في العهد الإسلامي الأول من المرجعين الوحيدين والصحيحين للعقيدة الإسلامية ، وهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وهو ما يؤكده الإمـــام أبـــو الحســـن الأشعري في قوله : << وأما الكلام في أصول التوحيد فمـــأخوذ أيضـــا من الكتاب قـــال الله تعـــالى : { لو كان فيهما آلهة إلا الله

---

[7] النشار ، د. علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ج1 ، ص8 .

[8] السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن ، الجامع الصغير ، ج1 ، ص132 .

[9] محمود ، د. عبد الحليم ، الإسلام والعقل ، ص126 .

لفســدتا }[10] وهذا الكلام الموجز منبه على الحجة بأنه واحد لا شريك له ، وكلام المتكلمين في الحجاج في التوحيد بالتدافع و التغالب فإنما مرجعه إلى هذه الآية . وقوله عز وجل : { ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض }[11] إلى قوله عز وجل : { أم جعلوا لله شــركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم }[12] وكذلك سائر الكلام في تفصيل فروع التوحيد والعدل إنما هو مأخوذ من القرآن >>[13] .

مــن هــنا ذهــب بعض الباحثين إلى أن القرآن الكريم كان من أقوى العوامل في نشأة علم الكلام لاشتماله على الموضوعات التي أصبحت فيما بعد أهــم قضايا علم الكلام ، ولتضمنه لمبادئ المناظرة وأساليب المجادلة ، والأدلة العقلية اليقينية ، والحث الدائم على التفكير في المخلوقات ، والسير في مناكب الأرض ، وذم الذين لا يستخدمون عقولهــم وحواسهــم للوصول إلى الحق : { ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصــرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون }[14] .

غــير أن الحديــث في العقائد لم يظهر خلال الفترة التي كان يترل فيها القــرآن ، ولا العهد الذي تلا وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد أثبت

---

(10) الأنبياء ، 21 .

(11) المؤمنون ، 91 .

(12) الرعد ، 16 .

(13) الأشعري ،أبو الحسن ،استحسان الخوض في علم الكلام ، نشر الأب مكارثي اليسوعي ، ص23

(14) الأعراف ، 179 .

المسلمون لله تعالى صفاته الأزلية التي وصفها لهم القرآن من العلم والقدرة و الإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام مع نفي مماثلته للمخلوقين ، كما أثبتوا ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من اليد والوجه ونحو ذلك مع نفي مماثلة المخلوقين بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شئ من هذا ، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نهى بشدة عن الخوض في الآيات المتشابهات مثل مسألة القدر والصفات ، وحرص ـــ في مناسبات عديدة ـــ على منع إثارتها ، وتأنيب من يتكلم فيها . فعن عمرو بن شعيب قال : { خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر ، فخرج مغضبا حتى وقف عليهم ، فقال : يا قوم ، بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم يترل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضا ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فأمنوا به } وعن أبي هريرة قال : { خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه ثم قال : أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حيث تنازعوا في هذا الأمر . عزمت عليكم ألا تتنازعوا } .

ويؤكد ابن القيم أن الخلاف في العهد الأول بين الصحابة كان منصبا حول الأحكام العملية التي كانت المحور الأساسي الذي تدور حوله جهود المسلمين ، ولم يخض أحدُ منهم في مسألة العقائد : << قد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المسلمين ، وأكمل الأمة إيمانا ، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ،

بـــل كـــلهم على إثبات ما نطق به الكتاب العزيز والسنة النبوية من أولهم إلى آخرهم >>[15] .

ويقرر المقريزي أيضا أن الصحابة رضي الله عنهم لم يؤثر عن أحد منهم ـــ على كثرتهم ـــ أنه سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن آيات الصفات ، ولم يكونوا يفرقون بين آيات ظاهرها التشبيه وأخرى ظاهرها التتريه ، بل كانوا يقـــبلون كـــل مـــا جاء به القرآن لأنه حق وصدق : << ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط من طريق صـــحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شئ مما وصف الـــرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم ، وعلى لسان نبيه محمد عليه الصـــلوات والتحـــيات . بـــل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصـــفات . نعم ، ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل و إنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكـــلام والجـــلال والإكرام والجود والإنعام والعز والعظمة ، وساقوا الكلام ســـوقا واحدا ... ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله وعلى إثـــبات نـــبوة محمد عليه الصلاة والسلام ســـوى كتاب الله، ولا عرف أحد مـــنهم شيئـــا من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة فمضى عصر الصحابة رضي الله عنهم على ذلك >>[16] .

ويكاد يجمع الدارسون على خلو المرحلة النبوية والراشدية من آثار علم الكلام ومنهم ابن خلدون الذي يقول : << إن القرآن ورد فيه وصف المعبود

---

(15) ابن القيم ، إعلام الموقعين ، ج1 ، ص55 .

(16) المقريزي ، الخطط ، ج4 ، ص181 .

بالـــتتريه المطلـــق الظاهر الدلالة من غير تأويل في آي كثيرة وهي سلوب كلها وصـــريحة في بابها فوجب الإيمان بها ووقـــع في كلام الشارع صلوات الله عليه وسلم وكلام الصحابة و التابعين تفسيرها على ظاهرها ثم وردت في القرآن آي أخـــرى قلـــيلة توهم التشبيه ، وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضـــوا لمعـــناها ببحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم إقرأوها كما جـــاءت آي آمنوا بأنها من عند الله ولا تتعرضوا لتأويلها ولا تفسيرها لجواز أن تكون ابتلاء فيجب الوقف والإذعان له >>[17] .

وبذلـــك مضى العهد النبوي ، وعهد الشيخين أبي بكر وعمر دون أن يجـــد المســـلمون ســـببا يســـوغ لهم الخوض في العقائد ، أو يدفعهم إلى طرح تســـاؤلات حولها . وهو ما عبر عنه البغدادي بقوله : << ثم اشتغلوا بعد ذلك بقتال الروم والعجم ، وفتح الله لهم الفتوح ، وهم ـــ في أثناء ذلك كله ـــ على كـــلمة واحدة : في أبواب العدل والتوحيد والوعد والوعيد ، وفي سائر أصول الدين >>[18] .

2 ـــ المرحلة الثانية : وهي مرحلة الميلاد والنشأة ، وقد تميزت باتســـاع رقعة الدولة الإسلامية ، في الوقت الذي اشتدت فيه شوكة الأمويين الطـــامعين في الحكم بعد مقتل عثمان بن عفان ، والذين أججوا نار الحقد ضد علي بن أبي طالب ، فظهرت ـــ نتيجة لهذه الاضطرابات السياسية ـــ الخلافات حـــول الإمامة والخلافة ، وظهر الخوارج الذين انشقوا عن علي رضي الله عنه بعـــد التحكـــيم ، والشـــيعة الذين ناصروه وآمنوا بأحقيته وأحقية آل البيت بالخلافـــة .وكان الإمام علي كرم الله وجهه مناظرا بارعا في العقائد الإسلامية ،

---

[17] ابن خلدون ، عبد الرحمن ، المقدمة ، ص463 .

[18] البغدادي ، عبد القاهر ، الفرق بين الفرق ، ص17 .

وقــد عده عبد القاهر البغدادي أول متكلمي أهل السنة من الصحابة فقال : << أول متكــلمي أهل السنة من الصحابة علي بن أبي طالب لمناظرته الخوارج في مســائل الوعــد والوعيــد ، ومناظرته القدرية في القضاء والقدر والمشيئة والاستطاعة >>[19] .

غــير أن التراع السياسي أخذ منعطفا خطيرا بعد مقتل علي رضي الله عنه عندما قام الخوارج يقاتلون بني أمية بناء على مذهبهم الذي كانت خطوطه الرئيسية قد تكونت ، والذي يقوم على أن الإيمان ليس ما وقر في القلب ونطق بــه اللســان بل إنه ما صدقته الجوارح ، أي أن الإيمان عندهم لا ينفصل عن العمــل ، وعلى هذا الأساس بنوا رأيهم على أن الفاسق غير مؤمن ، وهذا من أخطر النتائج التي اعتبروا بموجبها كل مخالف لهم فاسقا ، ولذلك يحل قتله وقتل أطفالــه واســتحلال نسائه [20] . وبناءا عليه فقد ذهب المستشرق فلها وزن **Welhausen** إلى أن الخـــوارج هـــم مؤسسو الدراسات العقيدية في الإسلام [21] ، وأيده في ذلك فؤاد سزكين .

وقد صاحب هذا التمزق السياسي ظهور صراع فكري وجدل عقدي طــرح عــلى الســاحة الإسلامية عدّة إشكالات أخلاقية ، أصبحت فيما بعد المنطلق الأساسي للفرق الكلامية المختلفة ، ومن بين هذه الإشكالات :

ــ قضـــية مرتكب الكبيرة : حيث تساءلت طائفة من المسلمين : هل مرتكب الكبيرة كافر ؟ .ومما ساعد على نشوء هذه الفكرة وطرحها بإلحاح في الواقــع الإسلامي ، ما شهده المجتمع بعد الفتنة الكبرى من تجاوز صارخ لحدود

---

[19] البغدادي ــ أصول الدين ، ص307 .

[20] الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص121 .

[21] سزكين ، فؤاد ، تاريخ التراث العربي ،ج2 ، ص345 .

الله في الأموال والأنفس والحرمات من طرف الأمويين بخاصة . حيث رأى عامة الناس أنه لا يجوز لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقترف هذه الجرائم ، ويتعدى على شرعية الخلافة في سبيل مصالح دنيوية [22] .

وكان الخوارج هم أول من طرحوا هذه الفكرة ، وانتهوا إلى أن مرتكب الكبيرة كافر ومخلد في النار ، بينما ذهب أهل السنة إلى أنه مؤمن عاص ، لأن كبيرته لا تخرجه من الإيمان ، ولا تدخله في الكفر لبقاء التصديق القلبي الذي هو حقيقة الإيمان [23] . وممن كانت له يد في معارضة الخوارج ورد مذهبهم الحسن بن محمد بن الحنفية ، أحد أئمة أهل البيت (ت **101** هـ) الذي أعلن أنه لا يضر مع الإيمان معصية وأن الطاعات وترك المعاصي ليست من أصل الإيمان حتى يزول الإيمان بزوالها . وكان يكتب للأمصار بذلك [24] ، حتى يبلغهم خطل المذهب الخارجي .

ـ قضية تحديد مدى مسؤولية الإنسان عن سلوكه . وفي هذا الإطار أثيرت مسألة : هل الإنسان مجبر على أفعاله كما هو ظاهر بعض الآيات ؟ أم هو حر ومسؤول عن أفعاله كما هو ظاهر بعض الآيات القرآنية الأخرى ؟ وبأي مقياس يجب أن نقيس ما فرط من المسلمين منذ أيام مقتل عثمان بن عفان هل هو قضاء وقدر ؟ أم هي أفعال مسؤولة ومدانة وتستوجب العقاب ؟[25] .

وقد أثبت الخوارج ـ الذين كان مذهبهم يقوم على الغلو والتطرف في كل شئ ـ للإنسان القدرة على الأفعال خلقا وإبداعا ، والاستطاعة لها قبل

---

[22] الكتاني ، د. محمد ، جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي ، ص406 .

[23] البغدادي ، عبد القاهر ، الفرق بين الفرق ، ص351 .

[24] النشار ، د. علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ،ج1 ، ص300 .

[25] الكتاني ، د. محمد ، جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي ، ص408 .

الفعـــل والقـــول ، وبأن الله ليس له مشيئة في الشر ولا في معصية العبد على الإطـــلاق[26]. بينما قال أهل السنة والحديث بالمذهب الكسبي الذي حدد أبو حنيفة النعمان ملامحه الأساسية . وكثرت النقاشات حول مسألة الجبر والاختيار التي أخذت بعد ذلك أبعادًا أخرى .

ويمكـــن اعتـــبار هذه التطورات الفكرية والسياسية التي تسارعت بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه الانطلاق الحقيقي لعلم الكلام . فقد هيأت الفتـــنة لظهـــور عـــدة فرق كلامية غشيت الساحة الإسلامية هي : الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية والجبرية وغيرها .

3 ـ **المـــرحلة الثالـــثة** : وهي مرحلة النمو والانتشار . وقد تميزت باستيلاء الأمويين على زمام الحكم ، ودخول الشعوب والأمم الأعجمية في الإسلام بكل ما تحمل من تراث ديني وفكري عريق وضخم .

وقـــد صاحب ذلك تحول الأحزاب السياسية إلى فرق دينية : فحزب عـــلي بن أبي طالب الذي آمن بأحقيته وأحقية أولاده في الخلافة تحول إلى فرقة الشيعة وحزب الخوارج الذين خرجوا على علي بعد واقعة التحكيم ، وكفروه هو و عثمان بن عفان ومعاوية تحول إلى فرقة الخوارج ، والصحابة الذين كرهوا خـــلاف المسلمين ولم يشاؤوا أن يلقوا تبعة ما حصل على أحد حتى لا يخرجوه مـــن دائرة الإيمان ، ورفضوا تعيين الفئة الباغية وأرجأوا كل ذلك إلى الله الذي يعلم السرائر وما تخفي الصدور كونوا فرقة المرجئة ، وهم الطائفة التي اعتزلت الفتـــنة فلم يناصروا عليا ، ولا معاوية ، ولا طلحة ولا الزبير . و الذين آمنوا بـــأن الإنســـان حرّ في أفعاله وأقواله ، مسؤول عما يأتي ويدع، مخير في سلوك

---

[26] الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص157 .

طريق الهدى أو الضلال ، قدره بيده كونوا فرقة القدرية التي ظهرت في البصرة على يد معبد الجهني (ت بعد 80 هـ) وغيلان الدمشقي . أما الذين ذهبوا إلى معارضتهم بالقول بأن أعمال الإنسان تجري على قدر الله ، وأن لا يدله فيها وهو مجبور على أفعاله إذ لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار فقد كونوا فرقة الجبرية ، وكان الجهم بن صفوان من أوائل من نادوا بهذه الأفكار .

ثم ظهرت فرقة أخرى انشقت عن مجلس الحسن البصري (ت 110 هـ) الذي كان يمثل عقيدة أهل السنة والجماعة تزعمها واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري وذهب إلى أن مرتكب الكبيرة لا هو كافر ولا هو مؤمن ، وإنما هو في مترلة بين المترلتين[27] وهي الفرقة التي عرفت فيما بعد باسم المعتزلة .

وفي مقابل الفرق الكلامية التي ظهرت نتيجة الصراع السياسي الداخلي ، شهدت الساحة الإسلامية ظهور تيارات فكرية أخرى ، أفرزها الاحتكاك بين المسلمين وأصحاب الديانات والفلسفات الأجنبية ، وكانت الصلات بينهم وبين الروم والفرس والمصريين قد قويت ، وبدأت الأمم المغلوبة ذات الحظ العظيم من الثقافة الدينية والفلسفية تجادل المسلمين في عقائدهم مما ساعد على إثارة المسائل الميتافيزيقية واللاهوتية .

وفي هذا الإطار ظهرت فرقة المشبهة الذين شبهوا ذات الله بذات غيره من المخلوقات ، وشبهوا صفاته بصفاقم. حيث زعم بعض أتباعها بأن الله إنسان من نور بأعضائه المعروفة ، وأنه يفنى إلا وجهه . وبعضهم قال إن الله ذو أعضاء ، وأن أعضاءه على صور حروف الهجاء ، وذهب بعضهم الآخر إلى أن الله يحل في كل صورة حسنة ، كما شبهوا كلام الله عز وجل بكلام خلقه ، وأن

---

[27] البغدادي ، عبد القاهر ، الفرق بين الفرق ، ص20 .

إرادته من جنس إرادة عباده[28] . وبذلك أجازوا عليه الملامسة والمصافحة والمعانقة والرؤية والمزاورة . وقد قال بذلك مضر بن محمد ، وأبو محمد الضبي الكوفي ، والكهمسي بن الحسن وغيرهم .

ثم ظهر مقاتل بن سليمان (ت 150 هـ) الذي فسر القرآن الكريم على هذا الأساس ، وملأه بالأحاديث الموضوعة الضعيفة والتشبيهات المادية في حق الله تعالى ، وقد نسب إليه قوله : << أن الله جسم وأنه على صورة الإنسان : لحم ودم وشعر وعظم ، له جوارح وأعضاء من يد ورجل ورأس وعينين وهو مع ذلك لا يشبه غيره ولا غيره يشبهه >>[29] .

وهذه التأثيرات في أغلبها مستمدة من العقيدة اليهودية التي نشط معتنقوها في بث أساطيرهم في أوساط المسلمين. ذلك أن اليهود هم الذين أضفوا على الذات الإلهية صفات الإنسان الجسمية والانفعالية : فهو عندهم أبيض اللحية والرأس ، يجلس على كرسي من نور ، يعمل ويتعب فيستريح ويحزن ، ويندم ، وينسى ، ويبكي حتى ترمد عيناه فيمرض وتعوده الملائكة [30] ... إلخ وهي صورة لتأثير الديانة اليهودية في ضعاف المسلمين ، وقد دفع ذلك علماء الكلام إلى الخوض في مسألة الصفات والقول بالتتريه المطلق لله عن صفات المخلوقين .

ولم يتوقف التأثير اليهودي على ذلك بل تعداه إلى التفسير والحديث ، حيث عمل كثير من اليهود الذين أسلموا نفاقا ، والمسلمين الذين لم يكونوا

---

[28] الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص105 .

[29] الأشعري ، أبو الحسن ، مقالات الإسلاميين ، ج2 ، ص151 .

[30] صبحي ، د. أحمد محمود ، في علم الكلام ، ص40 ــ 41 .

على حظ وافر من العقيدة المتينة والعلم الصحيح على إدخال الإسرائيليات إلى علم التفسير ، وحشو الأحاديث بضلالات كثيرة مليئة بالتشبيهات الغليظة [31]

كمـــا ظهرت المجسمة الذين قالوا إن الله جسم لا كالأجسام ، مستقر على العرش ، ومما سّته له من الصفحة العليا ، وله نهاية من ست جهات . ومن أبـــرز الفـــرق الـــتي مثلت هذا المذهب الكرامية نسبة إلى محمد بن كرام تأثرا بالعقـــيدة المجوسية التي تقوم على أن المعبود من نور يتناهى من الجهة التي يلاقي منها الظلام [32] .

ومثـــلما اصطدم الإسلام باليهودية والمجوسية التي طرحت أفكارا غريبة ومعارضـــة للعقيدة الإسلامية ، واستدعت من المتكلمين الرد عليها وتفنيدها ، كذلك دخلت المسيحية في صراع معه ، وأثارت عدة قضايا لاهوتية هاجمت بها الإسلام مسلحة بما كان لدى أتباعها من فكر فلسفي وقدرة على الجدال ، ومن أهـــم الموضوعات التي نجمت عن هذا الخلاف قضية ((كلام الله)) التي بدأت مـــن الجدال حول ((كلمة الله المسيح عليه السلام)) . وحاول المتكلمون من خلالهـــا إبطال ألوهية عيسى ثم انتقلت إلى البحث في كلام الله هل هو مخلوق ، قديم أم حديث [33] ... إلخ .

ومن بين النظم الفكرية التي واجهت العقيدة الإسلامية ، ودفعت علماء الكـــلام إلى الخوض فيها الفلسفة اليونانية فقد كان لدى علماء الإسلام معرفة لا بـــأس بهـــا بأصـــول الفلسفة اليونانية التي كانت مدارسها منتشرة في مصر والشـــام والتي وصلت إليهم من طرق مختلفة منها مناقشاتهم الحادة مع رجال

---

[31] النشار ، ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ج1 ، ص390 ومابعدها .

[32] صبحي ، د. أحمد محمود ، في علم الكلام ،ص66 .

[33] المرجع نفسه ، ص56 ــ 57 .

الكنيسة الذين كانوا يتسلحون بها لنقض عرى الدين الجديد ، ومنها تردد بعضهم على حلقات الدروس الفلسفية التي كانت تعقد في المدارس التابعة للكنائس والأديرة [34] وبقي اتصال المسلمين بالفلسفة اليونانية طيلة العهد الأموي وبداية العصر العباسي حصيلة جهد شخصي أو مبادرة فردية[35] إلى أن بدأت حركة الترجمة الرسمية للتراث اليوناني التي أخذت في عهد المأمون طابعا عاما منظما ومستمرا .حيث طور (بيت الحكمة) وخصص لها الأموال وشجع المترجمين الأكفاء على التفرغ لنقل الكتب الفلسفية إلى اللغة العربية .

وكان ذلك سببا قويا أسهم بقسط وافر في تسرب الأفكار الفلسفية اليونانية إلى العقلية الإسلامية مثل مذهب أبيقور الذي يتبنى فكرة حرية الفرد في اختيار أفعاله ، ومذهب الرواقيين الذين يعتقدون أن الإنسان مجبر ، ومسير لا يملك من إرادته شيئا [36] ، وغيرها من المقولات التي غزت المجتمع المسلم وفرضت نفسها على النخبة المثقفة فيه .

ويعد هذا العهد نقطة تحول كبرى في ميدان تقدم الفكر الفلسفي والنشاط الكلامي . فقد طرحت هذه الفلسفة موضوعات جديدة للجدل في العقائد وأثارت شبها حول كثير من القضايا ، وإلى ذلك يشير القرطبي بقوله : << لما ترجمت كتب الأوائل في زمن المأمون بعد المائين وظهر فيها اختلافهم في قدم العالم وحدوثه ، واختلافهم في الجوهر وثبوته والعرض وماهيته ، سارع المبتدعون ومن في قلبه زيغ إلى حفظ تلك الاصطلاحات ، وقصدوا بها إلى الإغراب على جهل السنة ، وإدخال الشبه على الضعفاء من

---

(34) النشار ، د. علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ،ج1 ، ص110 إلى 115

(35) فخري ، د. ماجد ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، تعريب كمال اليازجي، ص13 .

(36) كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص219 ـ 229 .

أهل الملة ، فلم يزل الأمر كذلك إلى أن ظهرت الدعوة ، وصارت للمبتدعة شيعة >>[37] .

وقد وجد علماء الكلام أن بين العقائد الإسلامية والمقولات الفلسفية اليونانية هوة سحيقة ، وهذا أمر طبيعي فالأولى مصدرها الوحي الإلهي المعصوم والثانية مصدرها العقل الإنساني المحدود الذي لا يستطيع أن يتجاوز حدود المعرفة التي توفرها له الحواس وعمل العقل . وعلى الرغم من ذلك استمدوا منها قواعد الجدل والمنطق ليهاجموها ، فقام نزاع بينهم وبين الفلاسفة المسلمين الذين تبنوا هذه الفلسفة وشرحوها وحاولوا التوفيق بينها وبين الإسلام كالكندي والفارابي ، وابن رشد وابن سينا وهو ما عرف بقضية التوفيق بين الحكمة والشريعة . وفي أثناء ذلك وفق كثير من علماء الكلام إلى صياغة فلسفة إسلامية خالصة معبرة بصدق عن روح الإسلام المنبثق عن القرآن والسنة ، وأشهرهم في هذا الميدان الأشاعرة والماتريدية ، والمعتزلة ، والشيعة المعتدلة[38] الذين حاربوا الفلسفة اليونانية حربا شديدة << ثم انقض عليها أبو حامد الغزالي انقضاضه الأكبر فماتت موتتها الأخيرة >>[39] .

غير أن أبرز نتيجة تمخضت عن تعامل المسلمين مع الفلسفة اليونانية أنها أعطت للعقل حرية غير محدودة للخوض في العقائد والغيبيات ، ورفعت من شأنه وحكمته في كل المعطيات حتى تلك الخارجة عن نطاق إدراكه فجرأت بذلك بعض المفكرين المسلمين على انتهاك قدسية النص المعصوم وإخضاعه لقياس العقل الذي لا يملك أية أدوات تمكنه من ولوج عالم ما وراء الطبيعة .

---

[37] القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج2 ، ص213 .

[38] النشار ، د. علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ص232 .

[39] المرجع نفسه ، ص118 .

4 ـ **المرحلة الرابعة** : وهي المرحلة التي تبلورت فيها المدارس الكلامية ، واتضحت خطوطها العريضة ، وبرزت أمهات الموضوعات التي يدور حولهـا الجدل بشكل واضح ، و تحددت مصطلحاتها ، وقويت ـ في المقابل ـ الهجمـة الأجنبية على العقائد الإسلامية من طرف اليهودية والمسيحية والمانوية المجوسية ، والفلسفة اليونانية ، بالموازاة مع نشاط حركة الترجمة .

وقـد تربع على عرش علم الكلام خلال هذه الفترة المدرسة المعتزلية ، الـتي كان علماؤها رواد بحث عقلي ونظر ممتاز في القرآن والسنة . وهم الذين رابطـوا على ثغر الإسلام ، وتسلحوا بما كان يتطلبه منهم العصر من أسلوب عقـلي وطـريق فلسـفي لإظهاره في مظهر المتحدي القوي القادر على الفوز بالجولـة العقلية [40]. في مواجهة الأنظمة العقائدية والفلسفية الضالة والمنحرفة والـتي كانـت تعمل على تقويضه من كل جانب ، وسطروا في هذا المضمار معـارك حاسمـة ضدها أرغمتها ـ في كثير من الأحيان ـ على التراجع على الساحة ، والتسليم بالهزيمة .

أما الجبهة الثانية التي كان المعتزلة يواجهونها فهي جبهة الفقهاء والمحدثين الذين كانوا يعارضونهم بشدة في طريقتهم في تقرير العقائد تبعا للمنهج العقلي . وقد استطاع المعتزلة أن يظفروا ـ في أوج ازدهار علم الكلام ـ بتأييد السلطة السياسية لهم وخاصة في عهد الخلفاء العباسيين المأمون (198 ـ 218 هـ) والمعتصم (218 ـ 228 هـ) والواثق (228 ـ 233 هـ) .

وكانـت أشـهر قضـية كلامية أثارت جدلا كبيرا في ذلك الوقت ، واستغرقت كثيرا من الجهود ، فكرة خلق القرآن التي قال بها المعتزلة وآمن بها

---

(40) النشار ، د. علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ج1 ، 583 .

المأمون ومن جاء بعده وحملوا الناس عليها ، وعارضهم فيها علماء أهل السنة والحديث فلحقهم من جراء ذلك اضطهاد وعنت كبير ، وكان أحمد بن حنبل بطل هذه المحنة بلا منازع . قال القرطبي : << والتبس الأمر على السلطان حتى قال الأمير بخلق القرآن ، وجبر الناس عليه ، وضرب أحمد بن حنبل على ذلك >>[41] .

وقد استغل المعتزلة نفوذهم ليلحقوا الأذى بكثير من الفقهاء والمحدثين الذين يخالفوهم الرأي في مسائل العقيدة الإسلامية ويعارضون بشدة إسرافهم في الاحتجاج بالعقل واستنادهم إلى قدرته على الوصول إلى الحقيقة أكثر من ثقتهم بنصوص الوحي . كما بالغوا في تجريحهم والاستهانة بهم ووصفهم بالعوام ،وتحقير عبادهم [42] . ولم يكن أحمد بن حنبل أول ضحاياهم ولا آخرها ، فقد عصفت المحنة بكثير من المحدثين والفقهاء ، وامتدت آلامها طوال النصف الأول من القرن الثالث الهجري .

وكرد فعل عنيف على المعتزلة الذين ركنوا إلى العقل وغاصوا في حقائق عقائدية عميقة ودقيقة حتى تنكبوا الحقيقة ، ظهرت مدرسة كلامية أخرى تعارضهم ، وتقيم حججها وبراهينها على أسس مغايرة لأسسهم وهي مدرسة الأشاعرة نسبة إلى أبي الحسن الأشعري (ت 330 هـ)، وهي تمثل عقيدة أهل السنة والجماعة . وقد سلك الأشعري في الاستدلال على العقائد مسلك النقل والعقل معا ، فحكم العقل فيما رأى أنه يؤيد الوحي ، وفوض لله مايعجز العقل عن تجاوز حدوده .

---

[41] القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج2 ، ص213 .

[42] أبو زهرة ، محمد ، تاريخ المذاهب الاسلامية ، ج1 ، ص150 .

كمـا أبلـت مدرسة الأشاعرة بلاء حسنا في دفع هجمات الفلاسفة والقـرامطة والباطنية ، وفي إضعاف آراء المعتزلة التي غالت في تأويل النصوص المعصومة وتغليب الصفة العقلية عليها . ومن أتباع الأشعري : أبو بكر الباقلاني (ت 403 هـ) والجويـني (ت 478 هـ) والغـزالي (ت505 هـ) والشهرسـتاني (ت 548 هـ) والبيضـاوي (ت 701 هـ) والأيجي (ت 756 هـ) والجرجاني (ت 816 هـ) وغيرهم .

وفي الوقـت نفسـه الذي ظهرت فيه مدرسة الأشاعرة لتواجه المعتزلة بالبصـرة ، ظهرت مدرسة أخرى تبنت المذهب نفسه وهو مذهب أهل السنة والجماعـة بسـمرقند،وهي مدرسة الماتريدية نسبة إلى أبي منصور الماتريدي(ت 333 هـ) وكانت آراؤه في العقيدة تعتمد في أصولها العامة على آراء الإمام أبي حنـيفة في هـذا المجال . وهو يقترب ـ في منهجه وأهدافه ـ من مدرسة الأشاعرة في معارضة المعتزلة ، والرد على المخالفين في العقيدة ، لكنهما يختلفان في بعض الأمور لعل أبرزها اعتمادهم على العقل في قضايا كثيرة دون شطط ، وإسـراف في حين يميل الأشاعرة أكثر إلى النقل . وهاتان المدرستان هما اللتان تمثلان مدرسة أهل السنة والجماعة .

وأبـرز ما ميز هذه المرحلة أيضا الاتجاه القوي نحو التأليف والتدوين ، فقد مال أغلب علماء الكلام خلال هذه الفترة إلى تضمين أفكارهم ومحاوراتهم كتـبا عديـدة ، تجاوبـا مع روح العصر الذي شهد تطورا واضحـا في جميع مجالات الحياة ، وبلغت الحضارة أوج ازدهارها .

وتتحدث كتب التراث عن مؤلفات كثيرة في علم الكلام ، ضاع كثير مـنها وخاصة فيما يتعلق بآثار المعتزلة فقد ضاعت كتب المريسي .وكتب أبي الهذيل العلاف أحد أقطاب المعتزلة الكبار ، وكتب أبي إسحاق النظام الذي يعد

أحد مفكري المذهب المعتزلي أيضا ، وكتب أبي جعفر الإسكافي الذي يقال إنه ألف سبعين كتابا في علم الكلام[43] ، وأبي الحسن الخياط وأبي علي الجبائي وغيرهم . ولم يتمكن الدارسون من معرفة آرائهم ومذهبهم في الكلام إلا من خلال ما نقل تلامذهم المتأخرون ، أو خصومهم من الأشاعرة في ثنايا كتبهم من نصوص .

بينما وصلت إلينا بعض الآثار من المعتزلة المتأخرين مثل " طبقات المعتزلة " و " مسألة في الغيبة " و " العمدة في علم الكلام " و " المعتمد في أصول الدين " وكلها للقاضي عبد الجبار آخر علماء المعتزلة الناهين [44] (ت 415 هـ) وكتاب "التذكرة في أحكام الجواهر والأعراض" لابن متويه ، وتفسير الزمخشري ، وكان الزمخشري (ت 538 هـ) آخر من ألف على طريقة المعتزلة .

أما الأشاعرة والماتريدية فقد وصلتنا كثيرا من مؤلفاهم لأهم أصبحوا ـ بعد انقراض المعتزلة ـ يمثلون عقيدة أهل السنة والجماعة التي انتشرت في معظم مناطق العالم الإسلامي ومنها : " مقالات الإسلاميين " و " اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع " و " الإبانة عن أصول الديانة " وكلها لأبي الحسن الأشعري . و " التوحيد " و " العقيدة " لأبي منصور الماتريدي و " تأويل الآيات المشكلة الموضحة وبياها بالحجة والبرهان " لأبي الحسن بن مهدي ، وكتاب " التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع " لأبي الحسن الملطي و " التمهيد في الرد على الملحدة والرافضة والخوارج والمعتزلة " و " البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات " و " مناقب الأئمة ونقض المطاعن على سلف

---

[43] سزكين ، فؤاد ، تاريخ التراث العربي ، ج2 ، ص402 .

[44] المرجع نفسه ، ج2 ، ص411 .

الأمـــة " و " كشـــف الأســـرار في الرد على الباطنية " و " الإبانة على إبطال مذهـــب أهـــل الكفر والديانة "[45] وكلها لأبي بكر الباقلاني ، و " الشامل في أصـــول الدين " لإمام الحرمين الجويني(ت 478 هــ) ، و" فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة " للغزالي و " غاية المرام في علم الكلام " للآمدي (ت631) و " المواقـــــف في علم الكلام " للأيجي (ت 756 هــ) و" المقاصد في علم الكلام " للتفتازاني [46] (ت 791 هــ) وغيرها .

5 ــ المــرحلة الخامسة : وهي مرحلة الضعف والانحسار .

وهـــي المـــرحلة الأخيرة التي شهد فيها علم الكلام تقهقرا وضعفا بعد أن لعب دورا أساســـيا في الحـــياة الدينية والثقافية والسياسية الإسلامية لقرون عديدة تجاوزت الخمسة .

وقـــد بدأت آثار التراجع تظهر عليه منذ أن برزت للوجود المدرستان السنيتان الأشعرية والماتريدية اللتان تولتا إدارة الصراع ضد المعتزلة الذين كانوا ــ حتى ذلك الوقت ــ قد بلغوا أوج نفوذهم العقلي والسياسي .

وممـــا أسهم في انتصار مدرسة السنة على المذهب المعتزلي تخلي الخليفة العباســـي المـــتوكل عن مساندته لهم [47] ، وعن القول بخلق القرآن كما فعل أســـلافه المـــأمون والمعتصم والواثق ، وكره العامة لهم بسبب إغرائهم الخلفاء بامـــتحان الفقهـــاء والمحدثين ، وطعنهم في كفاءة ونزاهة كثير من الأئمة الذين كانت لهم منزلة كبيرة لدى الأمة .

---

[45] سزكين ، فؤاد ، تاريخ التراث العربي ، ج2 ، ص 385 ــ 386 ــ 387 .

[46] أبو سليمان ، د. عبد الوهاب إبراهيم . كتابة البحث العلمي ومصادر الدراسات الإسلامية ، ص 285 ــ287 ــ 294 ــ 295 ــ 296 .

[47] أبو زهرة ، محمد ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج1 ، ص180 .

وتكـــاد تكـــون محنة أحمد بن حنبل أكثر الحوادث التي أثرت بعمق في العامة ، بالإضافة إلى ما تميز به المعتزلة من استعلاء فكري [48] وترف فلسفي ، ومـــا خاضـــوا فيه من العقائد بطريقة عقلية بحتة ، حيث أنكروا ــ على سبيل المـــثال ــ شفاعة النبي لمرتكب الكبيرة وقالوا بعدم نفع دعاء الأهل واستغفار الأحـــباب للميـــت بناء على قياسات عقلية ، وكل ذلك صدم وجدان العامة وعواطفها[49] .

مـــن أجـــل ذلـــك ، لم يكن أهل السنة والجماعة الذين وجدوا لهم مـــتـــنفســـا واســـعا في عهـــد المتوكل هم الجبهـــــة الوحيدة التي حاربت المعـــتزلة ، وأسهمت في إضعاف تأثيرهم ، بل إن العامة كان لهم دور حاسم في إقصائهم ، والقضاء شبه التام على أفكارهم ، حيث تعرضت كتبهم ومصنفاهم للإتلاف والحرق[50] على أيدي الناس الذين نقموا عليهم .

وباختفاء المعتزلة مـــن الساحة الفكريـــة الإسلامية ، وانتصار مذهب أهل السنة والجماعة تراجع علم الكلام وسكتت المعارك الحامية التي كانت هز الحـــياة الثقافـــية و السياسية . وعلى الرغم من أن حركة الأشاعرة والماتريدية كانـــت ضـــرورية لإيقاف المعتزلة عن شططهم ، وإعادة الكثير من الأمور إلى نصابها ، وإعطاء العـــقيدة صورها النقية التي جـــاء بها القرآن والسنة ، إلا أن تـــيار النقمة الجارف الذي قاده العامة ضدهم قد أسهم ــ إلى حد كبير ــ في خفـــوت صـــوت العقـــل والمبالغة في تقديس النصوص ، والتهيب من النقد ، والاعـــتماد أكـــثر على النقل خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين وهو

---

(48) صبحي ، د. أحمدمحمود ، في علم الكلام ، ص349 .

(49) المرجع نفسه ، ص349 .

(50) المرجع نفسه ، ص353 .

الطـــريق الذي قاد الفكر الإسلامي شيئا فشيئا إلى التقليد ، ثم أسلمه بعد ذلك لـــلجمود والشعوذة والدجل الذي ميز قرون الانحطاط وهذا ما يشير إليه أحمد أمين في قوله : << كان لاضطهاد المعـــتـــزلة ونصرة المحدثين منذ عهد المتوكل أثـــر كـــبير في حياة المسلمين منذ ذلك العهد إلى اليوم . فلقد استتبع الوقوف عـــنـــد الـــنص وتضييق دائرة العقل نمطا من التفكير يسود فيه التقليد دون الاجتهاد ، والوقوف عـــند النصوص دون التعمق في مغازيها ومراميها ، والنظر إلى الفلســـفة والبحث العقلي نظر البغض والكراهية ... هذا هو ما ساد عقول كثير من المسلمين منذ خنق الاعتزال ، فاحترمت نصوص الكتب أكثر مما احترم نقـــد العقل ، واحترم العالم الواسع الاطلاع بالنصوص الدينية واللغوية أكثر مما احـــترم قليل الحفظ واسع أفق العقل وأكرم العالم المقلد أكثر مما أكرم المجتهد ، ونظر إلى الفقيه و المحدث بخير مما نظر إلى الفيلسوف والمفكر الناقد >>[51] .

وقـــد توقفت المعارك الكلامية العنيفة ، وهـــدأ ضجيج المتكلمين مع نهايـــة القرن السادس الهجري وانقرضت كثير من الفرق الضالة ، وانقرضت معهـــا الفرق الكلامية ، وهو ما أشار إليه ابن خلدون (ت **808** هـــ) عندما قـــرر أن عـــلم الكـــلام قد استنفذ أغراضه في القرن الثامن الهجري ، ولم يعد للمســـلمين حاجـــة إليه بفضـــل مـــا بـــذله أئمـــة السنة في مناجزة الفرق الضـــالة : << وعلى الجملة فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غـــير ضروري لهذا العهد على طالب العلم إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا ، والأئمـــة مـــن أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا ، والأدلة العقلية إنما

---

[51] أمين ، أحمد ، ظهر الإسلام ، ج1 ، ص40 .

احـــتاجوا إلـــيها حين دافعوا ونصروا ، وأما الآن ، فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباري عن كثير إيهاماته وإطلاقه >>[52] .

---

[52] ابن خلدون ، عبدالرحمن ،المقدمة ، ص467 .

الفصل الثالث

أسباب نشأة علم الكلام :

لقد اجتمعت عوامل عديدة ومتشابكة ، داخلية وخارجية أسهمت كلها من قريب أو بعيد في نشأة علم الكلام وظهوره على الساحة الإسلامية ، ومن بين هذه العوامل :

1 ــ الآيات المتشابهات : لقد ضم القرآن الكريم بين دفتيه نوعين من الآيات : الآيات المحكمات التي هي أم الكتاب أي معظمه ، والآيات المتشابهات كآيات الصفات والهدى والضلال . فالأولى واضحة وقاطعة ، ولا مجال للتأويل فيها بينما تحتمل الثانية افتراضات عديدة ، ووجوها للتأويلات مختلفة [1] قال تعالى : { هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات }[2] .

وقد سلـــم المسلمون الأوائل بما جاء في هذه الآيات ، وآمنوا بها كما هي ، اعتقادا جازما منهم بأن الله لو رأى فيها ما فيدهم في دينهم ودنياهم لبينها وإيمانا منهم أن ما ورد بها لا تحتمله عقول البشر ، وأن الأولى بهم الالتفات إلى الآيات المحكمات لعمارة الأرض وتبليغ رسالة الإسلام ، وهو المجال الواسع الذي دعاهم القرآن للتقلب في جنباته والتنافس في اكتساب الخيرات فيه ،

وعليه فقد تحاشى الصحابة الكرام وأوائل المسلمين أن يكونوا من أصحاب البدع الذين قال فيهم الله تعالى : { فأما الذين في قلوبهـــم زيغ

---

(1) الصباغ ، محمد ، لمحات في علوم القرآن ، ص102

(2) آل عمران ، 7

فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله}[3] .فأمسكوا عن الخوض في الآيات المتشابهات وفضلوا أن يكونوا ممن قال فيهم الله تعالى : {و الراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب }[4] .

ومن أمثلة الآيات المتشابهات قوله تعالى : {الرحمن على العرش استوى}[5] ، وقوله عز وجل : { كل شيء هالك إلا وجهه }[6] وقوله : { يد الله فوق أيديهم }[7] وقوله : {وجاء ربك والملك صفا صفا }[8] وقوله { غضب الله عليهم }[9] وقوله : { فاتبعوني يحببكم الله}[10] وقوله تعالى { والسماوات مطويات بيمينه }[11] وقوله { يحذركم الله نفسه }[12] ، ومنها أيضا فواتح السور التي جاءت على شكل حروف متقطعة مثل : ألم ، ألر ، طس ،ق ، ن كهعيص ... أضف إلى ذلك الآيات التي تصف أهوال القيامة واليوم الآخر وأوصاف الجنة والنار ، وما إلى ذلك من المغيبات التي لا يدركها العقل [13] .

ومثلما نهى القرآن الكريم عن الخوض في مثل هذه الآيات ،حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال : { فإذا رأيت الذين يتبعون ما

---

[3] آل عمران ، 7
[4] آل عمران ، 7
[5] طه ، 5
[6] القصص ، 88
[7] الفتح ، 10
[8] الفجر ، 22
[9] الفتح ، 6
[10] آل عمران ، 31
[11] الزمر ، 67
[12] آل عمران ، 28
[13] الزرقاني ، محمد عبدالعظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، ج2 ، ص286

تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم }[14] ، وهو ما عبر عنه عليه الصلاة والسلام أبلغ تعبير في قوله : { اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم }، أي أن الدين قد اكتمل ولا مجال فيه لزيادة أو نقصان في مجال العقائد التي تعد علما وقفا على الله سبحانه وتعالى ولا مجال فيه للاجتهاد أو الابتداع .

وقد اتبع الصحابة الكرام هذه النصيحة النبوية : << ففصلوا في صورة حاسمة ـــ بين ما يتأتى ـــ للإنسان أن يسير فيه على ضوء التجربة وأن يبتدع فيه ويخترع ، وينسق ويؤلف . وهي الأمور التي تتصل بالمادة والحس ، وتتصل بعالم الطبيعة : أرضه ، وسمائه ، وما بين أرضه وسمائه ، وبين مالا يتأتى للإنسان أن يصل إلى معرفته إلا ظنا أو وهما وهو عالم ما وراء الطبيعة >>[15]

ولعل هذا ما يفسر لنا أسلوب الشدة الذي واجه به عمر بن الخطاب ميل بعض المسلمين إلى الخوض في المتشابهات . فقد أخرج الدارمي عن سليمان بن يسار أن رجلا يقال له ابن صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل فقال له : << من أنت ؟ فقال : أنا عبد الله بن صبيغ ، فأخذ عمر عرجونا فضربه حتى دمى رأسه ... وأذن له إلى أرضه ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري : ألا يجالسه أحد من المسلمين >>[16] . وقد حاول عمر بن الخطاب ـــ من خلال ذلك ـــ أن يسد باب فتنة كان سيفتحه هذا الرجل بالخوض في الآيات المتشابهات مما سيغري أعداء الدين باستغلاله للتشكيك في أوساط ضعاف الإيمان والجهلة من العامة .

---

[14] رواه البخاري ومسلم .

[15] محمود ، د. عبدالحليم ، الإسلام والعقل ، ص107 .

[16] الزرقاني ، محمد عبدالعظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، ج2 ، ص288 .

غير أن كل ذلك لم يمنع الناس من أن يبحثوا في هذه الآيات بعقولهم ، محاولين أن يجدوا لها تفسيرا يوفقون به بين مضمونها وبين العقائد الثابتة ، من منطلق أن حب الاستطلاع أمر طبيعي في كل البشر ، وأنهم وهبوا جميعا الاستعداد للنظر العقلي والتفكير الفلسفي ، ومن هنا نشأت البذرة الأولى لشجرة علم الكلام . يقول ابن خلدون : << هذه أمهات العقائد الإيمانية معللة بأدلتها العقلية ، وأدلتها من الكتاب والسنة كثير ، وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشد إليها العلماء ، وحققها الأئمة ، إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها من الآي المتشابهة فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل ، وزيادة إلى النقل ، فحدث بذلك علم الكلام >>[17] .

ومما سبق ، يتبيّن لنا أن القرآن الكريم كان من أوائل العوامل الهامة التي أدت إلى نشأة علم الكلام بعد أن أصبح محل نظر ودراسة كل المسلمين . فالعلماء الذين انصب اهتمامهم على آياته المحكمة أخرجوا للوجود علم الفقه وأصوله وعلم التفسير ، وعلوم النحو والصرف ، والبلاغة وغيرها .والذين اتجهوا للغوص في معاني آياته المتشابهة أوجدوا مواضيع غيبية صارت فيما بعد مثار جدل بين مختلف الفرق الكلامية.

2 ـ الإمامة والخلافة : تعد قضية الإمامة و الخلافة من الأسباب الداخلية الهامة التي أدت إلى ظهور علم الكلام وتنوع موضوعاته ذلك أن عدم تعيين الرسول صلى الله عليه وسلم ـ قبل وفاته ـ لشخص بعينه يخلفه في تسيير أمور الناس ،وتركه الأمر بأيدي المسلمين قد أثار ردود أفعال كثيرة لم تبد واضحة أيام الشيخين أبي بكر و عمر ، لكنها

---

[17] ابن خلدون ، عبدالرحمن ، المقدمة ، ص463

ما لبثت أن تحولت إلى شعور عام بالاستياء أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والذي كان يفتقر في سياسته للشدة التي تميزها عمر بن الخطاب ، والمبالغة في التحرج التي عرف بها أبو بكر الصديق ،مما أفسح المجال لبني أمية ليستغلوا طيبـــة الخليفـــة وعطفه على قرابته ،فيتقلدوا الإمـــارات ، ويجمعـــوا الثروات ،ويكونوا تكتلا سياسيا قويا ،الأمر الذي جعلهم يناصبون عليا كرم الله وجهه العداء بعد مقتل عثمان بن عفان ، ويستغلون حادثة الاغتيال المروع الذي ذهب بحياة ثالث الخلفاء الراشدين ليساوموا عليا على الخلافة .

وقد جر النزاع بين علي رضي الله عنه ، وبين بني أمية ممثلين بمعاوية حاكم الخليفة على الشام إلى الصدام المسلح الذي أسفر عن واقعة التحكيم التي خدع فيها علي ، واغتصب فيها معاوية السلطة قسرا ، وتبع ذلك ظهور الخوارج الذين ألقوا باللائمة على علي رضي الله عنه لأنه قبل التحكيم ، وما كان ينبغي له ذلك مادام على حق ومعاوية على باطل. وتمخض عن ذلك انشقاق المسلمين إلى شيعة علي الذين أحبوه عن إيمان ويقين ، وإلى خوارج كفروا عليا ومعاوية وعثمان جميعا ، وكونوا فرقة معارضة قوية ، حاربت عليا إلى أن تم اغتياله ، فقامت بعده تحارب بني أمية .

وفي خضم هذه الفتنة العمياء ظهر الجدال حول الإمامة والخلافة ، وكان الخوارج هم أول من أثاروها وتساءلوا : هل الخلافة واجب أم أنها لا تجب ؟ وهل يجب أن يكون الخليفة من قريش أم من عامة المسلمين مهما كان جنسه ؟ .وأعلن الشيعة أن الخلافة جزء من العقائد ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوكلها إلى علي رضي الله عنه ويستشهدون على ذلك بأحاديث كثيرة ، لكنها اغتصبت منه لمرات ثلاث في حين كان هو الأولى بها من غيره ،

. وكانت الحركة العلمية قد عرفت نشاطا مطردا منذ نزول القرآن الكريم ، وإقبال المسلمين على دراسته وتفسيره ، واستنباط معالم حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية منه .وكان لابد من أن يحدث لقاء بين الثقافة الإسلامية الناشئة وثقافات الأمم المغلوبة ، وقد تم ذلك بطرق مختلفة منها المشافهة والترجمة

وإذا كانت المشافهة قد حصلت منذ أول لحــظة للاختلاط إلا أن الترجمة قد تأخر وقتها لزمن طويل نوعا ما ،حيث لم يعرف صدر الإسلام ولا العصر الأموي مبادرات جادة لترجمة علوم الأوائل ، عدا ما يروى عن خالد بن يزيد بن معاوية الذي سعى إلى ترجمة بعض كتب الطب والفلك والكيمياء [22] غير أن هذه العلوم بدأت تتسرب إلى المسلمين عن طريق المدارس العلمية التي كانت منتشرة في الشام والعراق ومصر ، وكانت تدرس الثقافة اليونانية على يد علماء السريان المسيحيين [23] .ثم ما لبث الخلفاء العباسيون أن فتحوا باب الترجمة على مصراعيه . وكان الخليفة المنصور من أوائل الخلفاء الذين اهتموا بترجمة كتب النجوم والطب والفلسفة ، وقد راسل إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله أن يبعث إليه بما لديه من كتب الفلاسفة [24] واختار لها أمهر المترجمين لينقلوها إلى العربية ،وفي ذلك يقول المسعــودي أن المنصور: << هو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية ومنها كتاب كليلة ودمنة وكــتاب السند هنــد وتــرجمت له كــتب أرسططالــيس من

---

(22) الجاحظ ، البيان والتبين ، ص497

(23) ضيف ، د. شوقي ، العصر العباسي الأول ، ، ص109

(24) ابن خلدون ، عبدالرحمن ، المقدمة ، ص480

المنطقيات وغـــيرها وترجم له كتاب المجسطي لبطليموس وكتاب الأرثماطيقي وكتاب أوقليدس >>[25] .

وقد تابعه هارون الرشيد في الشغف بنقل علوم الأوائل ، فشجع بدوره حركة الترجمة ، وأنشأ بيت الحكمة في بغداد ، ونقل إليه ما وجدوه من كتب في أنقرة وعمورية ، وبلاد الروم التي غزاها المسلمون ، وقلد يوحنا بن ماسويه أمر الإشراف على ترجمة الكتب القديمة [26] .وبذل وزراؤه البرامكة أموالا طائلة لمن جد في نقل علوم الروم واليونان والفرس والهند إلى العربية[27] .

وقفزت الترجمة قفزتها العملاقة والنوعية في عهد الخليفة المأمون الذي تحولـــت (بيت الحكمة)في عهده إلى ما يشبه معهدا علميا كبيرا يتنافس فيه كبار التراجمة وحذاقهم لتعريب الكتب التي ما فتئت تصل بغداد من كل حدب وصوب وبمختلف اللغات ، يقول ابن النديم : << لما استظهر المأمون على ملك الروم كتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مـــــطر ، وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل >>[28].

كما يذكر ابن نباتة أن المأمون لما هادن ملك جزيرة قبرص : << أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليـــه

---

[25] المسعودي ، مروج الذهب ، ج4 ، ص241
[26] تاريخ ابن جلجل ، ص65
[27] ضيف ، د. شوقي ، العصر العباسي الأول ، ص112
[28] ابن النديم ، الفهرست ، ص339

والواجب الآن أن تبقى في ذريته من بعده ، فآل البيت وحدهم هم الجديرون بحكم المسلمين .

وعندما تولى معاوية الملك وشد بيد حديدية على مقاليد الأمور في الدولة الإسلامية وضرب معارضيه بقسوة بالغة طالت حتى أحفاد النبي الكريم وأهل بيته الأطهار ظهرت إلى الوجود فكرة حقيقة الإيمان ودلائله ، وكان الخوارج أول من طرحها حيث أعلنوا أن الإيمان ليس ما وقر في القلب ونطق به اللسان ، بل ما صدقته الجوارح ، فلا إيمان بدون عمل وعليه فمرتكب الكبيرة كـــافر . وعلى هذا الأساس بنوا خروجهم على بني أمية واستحلال قتالهم : فبنو أمية ليسوا من السابقين إلى الإسلام حتى يتصدروا لإمامة المسلمين وإمارة المؤمنين وكثير منهم لم يتورعوا عن سفك دماء المسلمين الذين عارضوهم واغتصاب أموالهم وترويعهم ، وقولهم إنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ليس كافيا لاعتبارهم مؤمنين ، مادامت أفعالهم تعارض كل مبادئ الإيمان ، ومن هنا نشأت فكرة تكفير فاعل الكبيرة .

وفي المقابل شجع بنو أمية المذهب الجبري القائل بأن الإنسان مجبر على أفعاله وأقواله ، ولا يملك منها شيئا وإنما كل ما يصدر عنه قدر مقدور سابق في علم الله ، فقد كان ذلك ملائما جدا لوضعيتهم فوصولهم إلى الحكم وسلطانهم على الناس ، بل وأعمالهم التي قد تخالف تعاليم الإسلام كلها من قدر الله ولا حيلة للناس في دفعه .

ويذكر ابن المرتضى في كتابه << المنية والأمل >> أن مـــذهب الجبر قد حدث في دولة معاوية وملوك بني مروان [18] ، كما يذكر الأصفهاني

---

[18] ابن المرتضى ، المنية والأمل ، ص7

أن شعراءهم وقراءهم كانوا يمدحونهم ويظاهرونهم بذلك [19] ، مما حمل ابن عباس على مراسلة قراء الشام من المجبرة يلعنهم لمظاهرتهم العاصين ، ولكونهم أعوان الظالمين الذين يحملون إجرامهم على الله وينسبون شر أفعالهم إليه [20].

ويروي ابن قتيبة أن عبد الملك بن مروان بعد أن قتل عمرو بن سعيد أخرج إلى أنصاره قبيصة بن ذؤيب الخزاعي وكان من الفقهاء الموالين للخليفة فقال لهم إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ [21].

ورأت جماعة من خُـلّصِ التابعين أن هذه الفكرة الخطيرة سوف تهدم بنيان الإسلام وتقضي على الشريعة فتصدوا لمقاومتها ، مؤكدين حرية الإنسان في أفعاله ، وامتلاكه الكامل لإرادته ، وقدرته على اختيار طريقه : فهو حر في أن يؤمن أو يكفر ، في أن يعصي أو يطيع ، وهو في كل ذلك يتحمل مسؤولية ما يصدر عنه ، وعلى هذا الأساس رتب الله الثواب والعقاب .

وبناءً على ما سبق ،فإن النزاع حول الإمامة والخلافة كان هو الشرارة الأولى التي أدت إلى طرح هذه القضايا الحساسة على الساحة الإسلامية ، والتي تحولت من صبغتها السياسية إلى الصبغة الفكرية ، وأصبحت فيما بعد المحاور الأساسية لعلم الكلام ثم تبلورت لتكون مذاهب كلامية .

3 ـ الترجمة : كان من أبرز النتائج التي أسفرت عنها الفتوحات الإسلامية دخول شعوب كثيرة وأجناس مختلفة في الدين الجديد حاملة معها تراثا زاخرا وغنيا بالعلوم والمعارف والديانات القديمة سواء منها السماوية أو الوثنية

---

(19) الأصفهاني ، أبو الفرج ، الأغاني ، ج10 ، ص99

(20) ابن المرتضى ، المنية والأمل ، ص8

(21) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج2 ، ص27

أحـــد، فأرسلها إليـــه ، واغتبـــط بهـــا المأمـــون ، وجعل سهل بن هارون خازنا لها >>[29].

وكانت الفلسفة اليونانية من أهم وأخطر العلوم التي وردت على العقل الإسلامي ، واستقطبت اهتمامه ، فأقبل عليها المفكرون المسلمون يقرؤونها ويستوعبونها ، ويستزيدون منها بعد أن فتحت لهم آفاقا فكرية جديدة . قال ابن خلدون : << حتى إذا تبحبح من السلطان والدولة ، وأخذ الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم من الأمم ، وتفننوا في الصنائع والعلوم وتشوقوا إلى الاطلاع على هذه العلوم الحكمية بما سمعوا من الأساقفة والأقسة المعاهدين بعض ذكر منها ، وبما تسمو إليه أفكار الإنسان فيها ، فبعث أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة . فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون واطلعوا على مافيها وازدادوا حرصا على الظفر بما بقي منها >>[30]

وقد أدى انتشار الفلسفة اليونانية على نطاق واسع في الوسط الثقافي إلى طرح مسائل ميتافيزيقية ولاهوتية كانت مثار جدل لدى الفلاسفة اليونان ، وأعيد طرحها على المسلمين كقضايا تتحدى عقيدتهم وتنتقص منها ، مما اضطر علماء الكلام إلى إتقان هذه الفلسفة واستيعاب قواعدها حتى تكون السلاح الذي يردون به على هجمات أصحاب الملل المخالفة ، وبخاصة النصارى الذين كانوا يستخدمون الطرق الفلسفيـــة والأقيسة المنطقيـــة بكثرة للتـــدليـــل على صحة عقائدهم والطعن في العقائد الأخرى .

---

[29] ابن نباتة ، سرح العيون ، ص166
[30] ابن خلدون ، المقدمة ، ص480

وكان المعتزلة من أكثر الفرق الإسلامية التي تأثرت بترجمة الفلسفة اليونانية واستخدمتها على نطاق واسع للدفاع عن الإسلام. وقد عبر الجاحظ عن ضرورة امتلاك المتكلم لناصية الفلسفة كسلاح ضروري لدحض شبهات أعداء الدين ، وأوجب أن يكون تضلع المتكلم فيها مساو تماما لتضلعه في أحكام الدين ومبادئه فقال : << ولا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام متمكنا في الصناعة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة >>[31] .

وبذلك أعطت حركة الترجمة لعلم الكلام نفسا قويا ،وأثرت مواضيعه بمقولات جديدة لم يعرفها العرب ولا المسلمون ،وانعطفت به نحو مرحلة جديدة أسهمت في تطوره و اتساع نطاقه.

4 ـ القوى المضادة : مما لاشك فيه أن القوى المضادة المتمثلة في الديانات و المعتقدات القديمة التي خضع أهلها للسيادة الإسلامية بعد الفتوح كانت عاملا مهما ، بل و أساسيا في نشأة علم الكلام ،وتطوره واستمراره لفترة طويلة امتدت إلى قرون عديدة . إذ يكاد يجمع المؤرخون و الدارسون القدامى و المحدثون على أن سكان البلاد المغلوبة الذين دخلوا الإسلام لم يعتنقوه جميعا عن اقتناع تام و إيمان كامل ،بل إن كثيرا ممن أسلموا ظلوا يحملون في أعماقهم الميراث الثقيل الذي ورثوه عن حضاراتهم القديمة .ومثلما وجد من المسلمين الجدد من أخلص في دينه ، واندمج في المجتمع الجديد عن طيب خاطر وجد آخرون ظلوا على عقيدتهم القديمة ،وأضافوا إليها الحقد على الدين الجديد فحاولوا الكيد له بكل وسيلة .يقول محمد عبده:<<وكان قد التحف بالإسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة دخلوه حاملين

---

[31] الجاحظ ، الحيوان،ج2،ص29

لما كان عندهم ، راغبين أن يصلوا بينه و بين ما وجدوه فثارت الشبهات بعدما هبت على الناس أعاصير الفتن ، واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من إطلاق العنان للفكر ،وشارك الدخلاء من حق لهم السبق من العرفاء ، وبدت رؤوس المشاقين تعلو بين المسلمين>>[32].

من هنا ، شهد المجتمع الإسلامي منذ ميلاده تكالب الأعداء عليه .وقد أوجدت الفتوحات الإسلامية التي أسقطت إمبراطوريتين عظميتين كانتا تقتسمان العالم جبهات جديدة للصراع الذي قاده أصحاب الديانات القديمة ليحطموا به الإسلام ،وليضربوه من الداخل ،وقد اتخذ هذا العداء أشكالا متعددة أهمها الهجوم الفكري.

ولم يملك العلماء المسلمون إزاء ذلك سوى أن يتصدوا لهذا الهجوم ، ليثبتوا للإسلام حقيقته السماوية المشرقة وجدارته بقيادة الإنسانية نحو الخير و العدل إلى يوم القيامة .وقد حمل عبء هذه المسؤولية الحضارية الثقيلة علماء الكلام الذين اضطروا ـ تحت وطأة الهجمة وضراوتها ـ إلى مجادلة اليهود ،والنصارى والصابئة والبراهة والمانوية ،والمجوس وغيرهم من أصحاب المذاهب والديانات الشرقية القديمة الذين بدأوا يسربون إلى العقيدة الإسلامية بعض المفاهيم الوثنية وقام بعضهم بإعلان هذه الآراء كتحد قوي للإسلام ، فطرحت في المجتمع فكرة تناسخ الأرواح ، وإنكار النبوات والقول بوجود إلهين يتنازعان الوجود هما إله النور وإله الظلمة ، وإنكار المعاد ، والإساءة إلى الذات الإلهية بنسبة صفات المخلوقين إليها . وكان ذلك عاملا قويا من عوامل انتعاش علم الكلام ، وازدهار الحركة العقلية التي تسلحت بالمنطق والفلسفة ، وتوسعت في استخدام العقل لنصرة نصوص الوحي وإثباتها .

---

(32) عبده،محمد.رسالة التوحيد.ص29

الفصل الرابع

علم الكلام : الموضوع والمنهج

أولا : الموضوع :

إن موضوع علم الكلام هو العقائد الإسلامية التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام . والعقيدة هي التصديق الجازم دون شك ولا ريب بكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم عن ربه قرآنا وسنة فيما يتعلق بالأمور الغيبية التي تشمل : علم التوحيد ، والنبوات ، والسمعيات ، والتي تضافرت النصوص القطعية على تقريرها ، وأجمع المسلمون عليها منذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا ، ومنها تتكون أركان العقيدة الإسلامية الستة وهي : الإيمان بالله تعالى ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره .

وقد جاء تفصيل هذه الأركان في الكتاب والسنة ، ومنها قوله تعالى: << آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير >>[1] . وقول النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عندما جاء في صورة رجل وسأله عن الإيمان : << الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره >>[2] .

وقد تحدث علماء الكلام عن موضوع هذا العلم من خلال تعريفهم له ، وتفاوتوا في تحديده بين موجز ومطنب ومنهم الأيجي الذي يقول أن

---

(1) البقرة ، 285 .

(2) رواه مسلم .

موضوع علم الكلام : << هو ذات الله تعالى ، إذ يبحث فيه عن صفاته وأفعاله في الدنيا كحدوث العالم ، وفي الآخرة كالحشر ، وأحكامه فيهما كبعث الرسول ونصب الإمام ، والثــواب والعقاب >>[3] ، أما التفتازاني فيذهب إلى أن موضوع هذا العلم هو : << ذات الله سبحانه ، لأنه يبحث عن صفاته الثبوتية والسلبية وأفعاله المتعلقــة بأمــور الدنيا كحدوث العالم أو بأمر الآخرة كبحث المعاد وسائر السمعيات >>[4].

وعين ابن خلدون الأمور التي يبحث فيها علم الكلام فقال : << إعلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان الذي في المرتبة الأولى الذي هو تصديق ، وعيّن أمورا مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا ، واعتقادها في أنفسنا مع الإقرار بألسنتنا وهي العقائد التي تقررت في الدين . قال صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الإيمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمــن بالقــدر خيره وشــره وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام >>[5] .

أما الشهرستاني فقد تحدث عن موضوع علم الكلام باعتباره مرادفا لعلم أصول الدين فقال : << الأصول معرفة الباري تعالى بوحدانيته وصفاته ، ومعرفة الرسل بآياتهم وبيناتهم ، وبالجملة : كل مسألة يتعين الحق فيها بين المتخاصمين فهي من الأصول ، ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسما إلى معرفة وطاعة ، والمعرفة أصل والطاعة فرع ، فمن تكلم في المعرفة والتوحيد كان أصوليا ، ومن تكلم في الطاعة والشريعة كان فروعيا ، فالأصول هو

---

[3] الأيجي ، عبد الرحمن بن أحمد ، المواقف في علم الكلام ، ص7 .

[4] التفتازاني ، شرح العقائد النسفية ، ص5 .

[5] ابن خلدون ، عبد الرحمن ، المقدمة ، ص462 .

موضوع علم الكلام ، والفروع هو موضوع علم الفقه ، وقال بعض العقلاء : كل ما هو معقول ويتوصل إليه بالنظر والاستدلال فهو من الأصول ، وكل ما هو مظنون ويتوصل إليه بالقياس والاجتهاد فهو من الفروع >>[6] .

ويقسم الفارابي العلوم الدينية إلى قسمين : قسم يتعلق بنصرة ما جاء به الدين من العقائد والأحكام وتفنيد كل ما خالفه بالأدلة العقلية ، وهذا موضوع علم الكلام ، ونوع يتعلق باستنباط قضايا وأحكام من الآراء والأفعال المنصوص عليها في الدين وهو علم الفقه . فعلم الكلام يبحث في أصول الدين بينما يبحث الفقه في فروعه ، ويبحث علم الكلام في أصول الاعتقاد والبحث فيها نظري بينما يعالج علم الفقه أحكام الشرع المتعلقة بالعبادات والمعاملات وهي أحكام عملية [7] .

وفي إطار إثبات هذه العقائد ودفع الشبه عنها خاض علماء الكلام في المسائل المتفرعة عنها فبحثوا في ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته ، وفي النبوة ، والرسالة ، وعصمة الأنبياء ، وفي عذاب القبر ، والحشر ، والصراط ، والشفاعة ورؤية الله تعالى ، والإسراء والمعراج ، ونزول عيسى عليه السلام ، والجنة والنار ، والكبائر ، والملائكة ، والمعجزات والكرامات ، وأفعال العباد ، ومسألة الجبر والاختيار ، وهل يجب على الله فعل الصلاح أو الأصلح أو لا يجب ؟ وهل الحسن والقبح يعرفان بالعقل أو الشرع ؟ ...إلخ .

---

[6] الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج1 ، ص41 ــ 42 .

[7] راجع : الفارابي ، أبو نصر ، إحصاء العلوم ، ص71 .

ثانيا : منهج البحث في علم الكلام :

يقوم منهج المتكلمين على دعامتين أساسيتين هما العقل والنقل ، فهم ينطلقون جميعا من مبدأ أساسي هو أن الوحي والعقل لا يتعارضان ، ومن ثم ذهبوا إلى أن الوحي حق والعقل يعضده ويسنده ، ويقيم الحجة الواضحة على صدقه : << منهج هذا العلم يستند إلى العقل والنقل معا ، لأن أصول العقيدة ثابتة ثبوتا يقينيا ، وعلى العقل أن يبحث لها عن الأدلة التي تؤيده في إقرارها وتجليتها على نسق عقلي يطمئن المؤمن ويرد شبه الخصم ، ولأن المتكلم يبدأ بالإيمان بالعقيدة إيمانا قلبيا ثم يذهب كل مذهب للحصول على أدلة عقلية تذكر هذا الإيمان وتدفع شبه الخصم >>[8] .

وانطلاقا من ذلك كثرت عندهم المصطلحات الكثيرة التي ترشد إلى أسلم الطرق لإقامة الدليل العقلي على صحة العقائد الإسلامية مثل : قياس الغائب على الشاهد ، والقياس الأولي ، وقياس الإحراج ، والتلازم ، والإلزام والاستدلال بالمتفق عليه على المختلف فيه ، والتأويل والسبر والتقسيم [9] ، وغيرها .

ومن أبرز ما ميز منهج المتكلمين :

1 ــ أنهم اعتبروا النظر [10] (أي إثبات العقائد بالدليل العقلي) واجبا من أول الواجبات التي يكلف بها الإنسان . لأنه الطريق إلى معرفة الله

---

[8] صبحي ، د. أحمد موسى ، في علم الكلام ،ج1 ، ص19 .

[9] المغربي ، د. علي عبد الفتاح ، الفرق الكلامية الإسلامية ، ص17 إلى 46

[10] لا يكاد يخلو كتاب من كتب علم الكلام من فصل طويل عن النظر وأسبابه ودرجاته . راجع مثلا : أبو بكر الباقلاني ، كتاب التمهيد ، تحقيق الأب مكارثي ، بيروت . 1957 ، وأبو حامد الغزالي ، المستصفى من علوم الأصول ، المطبعة الأميرية

التي تفضي إلى معرفة الواجبات الشرعية . وقد عضدوا وجهة نظرهم هذه بما حفل به القرآن الكريم من الآيات الكثيرة الدالة على وجوب التفكير ، والداعية إلى إنعام النظر والتأمل في خلق الله ، واستعمال العقل في كل ما يرد على الحواس من معلومات ، وإخضاع الآراء والأفكار والعادات والأحكام للتقييم ، كما احتجوا لذلك أيضا بما ورد في القرآن من ذم للتقليد ، وتشنيع على المقلدين الذين يعطلــون عقولهم ، ويكتفون بترسم خطى غيرهم في الاعتقاد ، معتبرا ذلك من أهم أسباب الانحراف والزيغ الذي أفضى بهم إلى الكفر والشرك ، كما في قوله تعالى : << وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا >>[11] . وهذا الأمر ــ في نظر المتكلمين ــ دعوة صريــحة لبناء العقائد على الحجة والبينة والسند العقلي .

وبما أن إنكار التقليد في الاعتقاد قد تكرر في الـــقرآن في أكثر من موضع ، فقد انتهى المتكلمون إلى أنه نقيض العلم الصحيح ، ومن ثم ذهبوا إلى أن الإنسان الذي لا يستدل على دينه بعقله لا يعد مؤمنا . وقد تطورت هذه النظرية حتى وصلت إلى إلزام المكلف بوجوب الشك قبل الاعتقاد ، وهو ما ذهب إليه أبو هاشم الجبائي[12] الذي وضع قواعد الشك المنهجي من أجل

بولاق ، القاهرة 1322 هـ . والاقتصاد في الاعتقاد ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة . 1966 م وأبــو الفتح الشهرستاني ، نهاية الاقدام في علم الكلام ، تحقيق المستشرق ألفــريد غيوم . لندن 1964 م . وإمام الحرمين الجويني ، الارشاد إلى قواطع الأدلة في الاعتقاد . تحقيق المستشرق لوسياني ، باريس ، 1938 .

[11] البقرة ، 170 .

[12] أبو هاشم الجبائي (ت 321 هـ) ولد بالبصرة ثم رحل إلى بغداد وبها أقام إلى أن توفــي ، أخــذ علم الكــلام عــن أبــيــه أبــي عــلي الجبــائي ، وخالفـــه في بعض القضايا ، وكان يطلق على أتباعه اسم " البهشيمية " . حظى بصحبة الوزير الصاحب بن

الوصول إلى اليقين ، وقرر أن من : << أول الواجبات المفروضة على المكلف هو الشك >>[13]، وهو التوجه نفسه الذي عبّر عنه الغزالي بقوله : << مــن لم يشــك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر كتان في العمى والضلال >>[14] .

وبذلك كان وجوب النظر ، وحسن الإدراك ، وتحكيم العقل ، ورد التقليد والمتابعة أساسا هاما من أسس منهج المتكلمين .

2 ــ أنهــم قامــوا بدراســة منهجيــة ، وقراءة نقدية ، ومتابعة تاريخية دقيقة لأسس جميع الأديان السماوية منها وغير السماوية التي كانت موجودة على الساحة ، والتي استجمعت قواها لمواجهة الإسلام . فدرسوا أصول عقائدها ، وحددوا مواضع الخلاف الأساسية بينها وبين العقيدة الإسلامية حتى يتمكنوا من مواجهتها فكريا . وقد بلغوا في ذلك شأوا بعيدا ، حيث كان معظم المتكلمين من أصحاب العقول الخصبة الجبارة ، والثقافة الموسوعية ، مما أكسب علم الكلام واقعية تمثلت في أن القضايا التي عالجها

عــباد الــذي كان أحد تلاميذه . كان غزير الإنتاج وله تأليف كثيرة ضاعت كلها ، ولم يــتعرف الدارسون على آرائه إلا من خلال ما نقله القاضي عبد الجبار في كتابه " شرح الأصــول الخمســة " (راجع ترجمته في الفهرست لأبن نديم ، ص 174 ، تاريخ بغداد للخطيــب ، ج11 ، ص55 . وفـيات الأعــيان لابــن خلكان ، ج1 ، ص367 ، ميزان الاعــتدال للذهبــي ، ج2 ، ص131 ، لسان الميزان لابن حجر ، ج4 ، ص16 . طبقات المعــتزلة للمرتضــي ، ص94 ، البداية والنهاية لابن كثير ، ج11 ، ص176 ، الأعلام للزركلي ، ج4 ، ص130) .

[13] فــتاح ، د. عــرفان عــبد الحمــيد . الفلسفة في الإسلام : دراسة ونقد . مؤسسة الرسالة . بيروت . لبنان . 1984 م ، ص35 .

[14] الغزالي ، أبو حامد ، المنقذ من الضلال . تحقيق : عبد الحليم محمود ، ص85 .

كانت استجابة للشبهات التي راجت في المجتمع الإسلامي ، وباتت تهدد بناءه العقدي بالهدم ، ولم تكن مجرد قضايا نظرية يقصد بها الترف العقلي ، كما أكسبه ذلك حركية نلمسها بشكل بارز في التغيير الدائم في محاور الاهتمام ، وأساليب المواجهة التي كان يسلكها المتكلمون تبعا لما يرد على العقيدة من شبهات واعتراضات : << فيكون لكل مقام مقال ، ولكل طريقة في الهجوم طريقة في الرد تناسيها ، ولكل شبهة ــ مهما كانت خفية الخطر ــ ما يكشف عن خطرها ويرد كيدها >>[15].

وفي هذا الإطار تندرج دراساتهم المفصلة لأصول اليهودية والنصرانية والمجوسية والبراهمية وتاريخها . وقد مكنتهم هذه الدراسات من وضع اليد على النقاط الجوهرية الــتي تتعارض فيها مع الإسلام ، ومن ثم تحديد أساليب المواجهة معها .

ففي دراستهم الدقيقة لليهودية ركزوا دفاعهم على جملة من القضايا التي استهدفت التشكيك في العقائد الإسلامية ونقضها ، ومنها قضية إنكار اليهود للنسخ في الشرائع باعتبارها تطعن في صلاحية الشريعة الإسلامية ، ومنها ما شاب هذه الديانة من تجسيم فظيع ، وتشبيه غليظ للذات الإلهية بالمخلوقات ، وعن هذه القضية تفرعت مشكلة الصفات ، كما عالجوا موضوع تتريه الأنبياء عن الذنوب وإثبات العصمة لهم نظرا لما ألصقه اليهود بالرسل من رذائل ، وما نسبوا إليهم من تجاوزات أخلاقية .

وعندما عرضوا للمسيحية ناقشوا قضية التثليث ، وألوهية عيسى ، وحادثة الصلب والفداء ، وكشفوا ما خالطها من عادات ذات أصول وثنية رومانية ، وهاجموا أيضا أتباع الديانات المجوسية كالزرادشية ، والمانوية ،

---

[15] النجار ، د. عبد المجيد . مباحث في منهجية الفكر الإسلامي ، ص117 .

والمزدكية الذين يقولون بوجود إلهين اثنين خالقين : إله النور وإله الظلمة . وتصدوا للرد على البراهمية الذين ينكرون النبوات والوحي ، ويزعمون أن في العقل كفاية وغناء عن الوحي والنبوة . ومن هنا نشأت مسألة الصلة بين العقل والنقل ، واجتهد المتكلمون في الاستدلال على تكاملهما ، ورفع التعارض بينهما ، وهو ما أشار إليه الغزالي في قوله إن الوحي عقل من خارج ، والعقل وحي من داخل ، وهما متعاضدان [16] .وعندما وردت عليهم الفلسفة اليونانية التي تعتد بالعقل وتحتكم إليه ، وتقيم جميع أحكامها على المنطق والمعقول ، لم تعجز هي أيضا المتكلمين الذين أتقنوها ، وتمرسوا على مقاييسها ، وموازين حكمها ، وطرائق جدلها ، وحددوا فيها أيضا نقاط التضاد التي تتعارض مع العقيدة الإسلامية وأهمها : القول بقدم العالم ، وإنكار عملية الخلق من العدم ، والقول بأن الله تعالى يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات ، وإنكار حشر الأجساد والقول بأن الثواب والعقاب هما للأرواح المجردة .

وقد تفاوت المتكلمون في استعمال المنهج العقلي لإثبات النصوص النقلية تفاوتا كبيرا ، فمنهم من أسرف في الاعتماد على العقل كوسيلة وحيدة لإدراك المعرفة والوصول إلى الحق ، إلى درجة ذهبوا معها إلى تأويل النصوص المعصومة ولَيّ أعناقها لتناسب النظر العقلي الذي بنوا عليه آراءهم . وأبرز مثال في هذا المجال المعتزلة الذين انجرفوا مع تيار العقل وعظمت ثقتهم به ، وتجاوزوا المهمة الأساسية التي اضطلعوا بها وهي مواجهة أهل الملل المعادين للإسلام إلى البحث في عالم الغيب ، وأسرفوا في التأويل : << فكثر خلافهم

---

[16] فتاح ، عرفان عبد الحميد . " منهج المتكلمين : دراسة وتقويم " . مجلة إسلامية المعرفة . س2 ع8 . أبريل 1997 م . ص96 .

وقل تقواهم >>[17] ، ولم تعد أبحاثهم الكلامية منحصرة في حماية العقيدة ، بل تعدت إلى طرح أفكار غريبة كانت سببا في إثارة الشكوك لدى الناس : << لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة ، تشوق المتكلمون إلى مجاوزة الذبّ عن السنة بالبحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ، ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلاف الخلق >>[18] .

وقد جر انسياقهم وراء قواعد المنطق إلى الانزلاق في التأويل وتمجيد الأحكام العقلية على حساب ا النقلية : << وغلت طوائف أخرى في تمجيد العقل فاستشــرف إلــى ما وراء الحدود المحدّدة له ، وتسامى إلى الحظائر الغـــيبية فتشعبت به السبل إلى الحق في معرفة الله وتوحيده ، ونجمت لذلك ناجمة علم الكلام وما استتبعه من جدل وتأويل وتعطيل ، وتشابهت السل على عامة المسلمين لكثرة هذه الطوائف فكان هذا التفرق الشنيع في الدين أصوله وفروعه >>[19] .

ومنهم من بنى آراءه الكلامية على النصوص بدرجة أولى ، وجعل العقل مدعما لها فإذا تعارض عندهم العقل والنقل في أمور متشابهة رجحوا النقل ، وأعلنوا عن عجــز العقــــــل على الولوج في كثير من القضايا التي تتجاوز طاقته . ومن بين هؤلاء الأشاعرة .

---

[17] ابن رشد ، فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ، ص 63

[18] الغزالي ، أبو حامد ، المنقذ من الضلال ، ص88

[19] الإبراهيمي ، محمد البشير ، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج4 ، ص207 .

ومنهم أيضا من وقف موقفا وسطا بين الطائفة الأولى والثانية ، فأوجدوا توازنا رائعا بـــين العقل والنقل ، وأكّدوا ضرورة كل منهما لمعرفة الله عز وجل والوصول إلى الحق وهم الماتريدية .

وقد تعرض المنهج العقلي الذي اتبعه المتكلمون في تقرير العقائد لنقد شديد سواء من طرف العلماء القـــدامى أو الدارسين المعاصرين ، وعابوا عليه جملة من المآخذ التي أساءت إلى العقيدة أكثر مما نفعتها منها :

أ ـــ أن هذا المنهج قد ابتعد عن منهج القرآن الكريم في إثبات العقائد والدفاع عنها ، واستعاض عنه بأدلة عقلية ، وبراهين فلسفية لا تنجح دائما في إقناع المستمع بقدر ما تثير في نفسه الشبه والشكوك . بينما اشتمل الـــقرآن : << على جميع أنواع البراهين وألوان الأدلة ، وسلك جميع طرق الاستدلال ، وما من سبيل لإثبات العقيدة إلا وكتاب الله قد سبق إليه وقرره >>[20] .

ومن مميزات المنهج القرآني في الاستدلال على العقائد التنبيه إلى الحقائق الطبيعية القائمة على المشاهدة ، والمؤسسة على المعرفة التجريبية ، ولفت الأنظار إلى الظواهر الكونية ، وآيات الله في الأنفس والآفاق ، ومخاطبته لجميع المستويات الفكرية ، فبراهينه لا يتوقف فهمها على علم واسع ، ودراسة عميقة بل هـــي مبسوطة للجميع ، يجد فيها ضالته العامي والعالم المتخصص سواء بسواء ، وهي تخاطب بالدرجة الأولى الفطرة الإنسانية التي تعد عاملا مشتركا بين جميع أفراد البشر .

والحق أن المتكلمين لم يهملوا الأدلة القرآنية إهمالا تاما ، بل كانت هي منطلقهم الأول عند نشأة علم الكلام ، غير أن تجدد الظروف ، وتغير المعطيات

---

[20] الغالي ، د. بلقاسم . << علم الكلام القرآني >> . مجلة المسلم المعاصر ، ع62 ، 1992 م ، ص 94 .

اضطرهم اضطرارا إلى سلوك سبيل الأدلة العقلية عندما دخلوا في حوار عميق مع اليهود والنصارى والوثنيين الذين كانت عقولهم قد تفلسفت فلم يعد : << يكفيهم في الإقناع أن تذكر لهم الآيات والأحاديث ، بل يريدون الرجوع إلى قضايا تستند على القدر المشترك من العقل >>[21] . وقد تركت هذه الأدلة أثرها القوي في تراجع الهجمات الموجهة إلى العقيدة الإسلامية ، غير أنها أصبحت ـ بعد تدهور علم الكلام وانحطاطه ـ عبارة عن مسائل تجريدية ، وأدلة عقلية يشوبها الغموض ، فلم تعد تتجاوب مع تطور الحياة ، وبناء عليه جاءت هذه الدعوة إلى العودة إلى منهج القرآن الكريم في تقرير العقائد .

ب ـ أنه اتخذ من المنطق أساسا لإقامة البرهان على وجود الله لأنه مظنة الخطأ ، وما يمكن أن يتسرب إليه الخطأ لا يصح أن يكون أساسا للإيمان ، كما أنه يمكن بواسطة المنطق نفسه أن نصل إلى نتيجة مناقضة للنتيجة التي توصلنا إليها سابقا ، لذلك كانت طريقة المتكلمين في إثبات الإيمان بالمنطق غير صحيحة لاحتمال الخطأ الذي يؤدي إلى الضلال في الاعتقاد . وهذه أسوأ نتيجة تمخض عنها الاشتغال بالفلسفة اليونانية التي يرى الإمام عبد الحليم محمود أنها فلسفة وثنية قامت على تأليه العقل البشري ، وأخضعت له المسائل الإلهية التي لا يمكنه أن يخوض فيها أو يصل فيها إلى مخرج سليم : << وقد أرادت أن تجد لجاما يعصمها من الخطأ فاخترعت فنا وثنيا آخر هو فن المنطق فما أجدى ولا أغنى >> [22] ، حيث أخفقت جميع محاولات الفلاسفة اليونان في الوصول إلى نتيجة نهائية بخصوص عالم الغيب لأنها تفتقر إلى المصدر الإلهي الذي بيده مفتاح ذلك .

---

[21] النجار ، د. عبد المجيد . مباحث في منهجية الفكر الإسلامي . ص103 .

[22] محمود ، عبد الحليم ، الإسلام والعقل . ص133 .

وقد انتقد الإبراهيمي بشدة الاعتماد على المنطق اليوناني في تقرير العقائد الإلهية الثابتة الخالدة ، وبيّن عجزه عن ذلك فقال : << لو كان هذا العلم المستحدث ذا قواعد طبيعية لا تنقض كقواعد الحساب والهندسة مثلا لخف ما يلقي الناس في تعلمه من عناء ، ولكننا رأينا تلك القواعد تتهاوى في المناظرات القولية أو القلمية كفقاقيع الماء ، فلا يكاد يبني الباني حتى ينبري له هادم ينقض ما بنى ويتبر ما علا >>[23] .

وجر توسع المتكلمين في استخدام المنطق الأرسطي إلى اختلاط مواضيع علم الكلام بالمواضيع الفلسفية وطغيانها عليه ، مما أدى إلى غلبة الأسلوب الفلسفي التقريري الشرحي على أسلوب الكلام الجدلي ، وأصبحت الغاية منه حشد أكبر قدر من الأدلة العقلية والبراهين المنطقية وليس الانتصار للعقائد الإسلامية والدفاع عنها .

وهو ما أشار إليه ابن خلدون في قوله : << ولقد اختلطت الطريقتان (طريقة علم الكلام وطريقة الفلسفة) عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين من الآخر ، ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم ... إلا أن هذه الطريقة يعني بها طلبة العلم للاطلاع على المذاهب والإغراق في معرفة الحجاج لوفور ذلك فيها >>[24] .

وبذلك أصبح علم الكلام عاجزا عن إيجاد الإيمان و تقويته والحفاظ على جوهر العقيدة نقيا صافيا ، وتحول إلى طريقة عقلية لإنتاج المعرفة المجردة وتشعبت به مباحثه إلى قضايا فرعية مغرقة في التأويلات الفلسفية ، وهو ما يعده الدارسون بداية اتجاه هذا العلم نحو الانحطاط والركود .

---

[23] الإبراهيمي ، محمد البشير ، آثار الشيخ البشير الإبراهيمي ، ج1 ، ص98 .

[24] ابن خلدون ، عبد الرحمان ، المقدمة ، ص430 ــ 431 .

ج ــ أنه أفرط في البحث فيما وراء الطبيعة ، ومنح العقل الحرية الكاملة في إخضاع كل شيء للبحث حتى ولو كان أمرا غيبيا خارجا عن نطاق العقل والحس الأمر الذي جعل المتكلمين يتزلقون في متاهات التأويل والتعطيل ، ويقعون في كثير من الفروض النظرية والوهميات التي تمس الذات الإلهية وعالم الغيب ، ويضطرون إلى تحكيم ما توصلت إليـــــه عقولهم فيما ورد في النصوص المعصومة ، فأصبح النقل يتبع العقل ، بينمـــا جاء القرآن ليجعل العقل ــ في المسائل الغيبية ــ تابعا للنقل ، وظيفته الفهم والإدراك .

وكان من نتائج الإفراط في الثقة بالعقل أن حاول المتكلمون ــ وخاصة منهم المعتزلة ــ إخضاع الأحكام الإلهية للتقييم الأخلاقي ، والتماس تعليل كل فعل إلهي . ومن ذلك استعمالهم لطريقة قياس الغائب على الشاهد في بحثهم في ذات الله تعالى وصفاته ، ومعناها قياس ذات الله على الإنسان ، وقد انتهى بهم هذا القياس إلى القول بأن العدل واجب على الله تعالى ، دون أن يفطنوا إلى أن عـــدل الله لا يصح أن يقاس على عدل الإنسان : << وإلا أخضعنا الله تعالى لقوانين هـــذا العالم وهو الذي خلقه وأبدعه >> [25] .

ومنها أيضا إنكار شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحاب الكبائر دون توبة ، وادعاؤهم أن دعاء الأهل واستغفار الأحباب لا تنفع الميت بعد موته لأن عمله ينقطع بوفاته [26] وهو يحاسب على هذا العمل فقط ، وفي هذا أيضا نزوع نحو القياس العقلي الجاف المبالغ فيه ، دون مراعاة لطبيعة الذات الإلهية التي لا يدرك الإنسان كنهها وماهيتها وكيف ستكون صورة الحشر والحساب .

---

[25] الخالدي ، د. محمود . العقيدة وعلم الكلام . ص52 .

[26] صبحي ، د . أحمد محمود ، في علم الكلام ، ج1 ، ص349 ــ 350 .

وفي هذا السياق تروي كتب المتكلمين الأشاعرة كيف تصدى أبو الحسن الأشعري لأستاذه أبي علي الجبائي المعتزلي لينقض مبدأ الصلاح والأصلح الذي حاول من خلاله المعتزلة أن يجعلوا لكل فعل إلهي علة قياسية على قدرات البشر ، فقد سأل الأشعري أبا علي الجبائي : ما قولك في ثلاثة : مؤمن وكافروصبي ، قال الجبائي : المؤمن من أهل الدرجات ،والكافر من أهل الهلكات ،والصبي من أهل النجاة ،قال الأشعري : فإن أراد الصبي أن يرقى إلى أهل الدرجات هل يمكن ؟ ، قال الجبائي : لا يقال له إن المؤمن قد نال هذه الدرجة بالطاعة وليس لك مثلها . قال الأشعري : فإن قال إن التقصير ليس مني ، فلو أحييتني كنت عملت من الطاعات كعمل المؤمن . قال الجبائي : يقول له الله كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت ولعوقبت ،فراعيت مصلحتك وأمتك قبل أن تنتهي إلى سن التكليف ،قال الأشعري :فلو قال الكافر : يا رب علمت حاله كما علمت حالي فهلا راعيت مصلحتي مثله فأمتني صغيرا ؟ فانقطع الجبائي [27] .

وقد علق ابن خلكان على هذه الحادثة بقوله إن : << هذه مناظرة دالة على أن الله تعالى يختص برحمته من يشاء كما يختص بعذابه من يشاء وأن أفعاله غير معللة بشيء من الأغراض >> [28] قال السبكي : << من أصولنا أنه تعالى لا يجب عليه شيء ولا يفعل شيئــا لشيء يعثه عليه بل هو مالك الملك ورب العالمين ،لا يسأل عما يفعل وهم يسألون >> [29]

---

[27] ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج 3 ،ص 398

[28] المصدر نفسه – ج 3 – ص 398

[29] السبكي ، طبقات الشافعية ج 2 – ص 250 – 251.

د ــ أنه صاغ العقيدة صياغة سلبية ،وقيدها في عبارات تتسم بالتجريد الخالص ، و الجفاف العقلي الذي يقف عند الرسوم والأشكال الخارجية للدين ولا يكشف عن جوهرها الحقيقي ومقاصدها العالية ،مما أفقدها صفاء الإيمان وحرارة العاطفة والوجدان ،وابتعد بها عن المنهج القرآني الذي يخاطب العقل والقلب بشكل ينسجم مع كل المستويات ، وهو ما عبر عنه جمهور المخالفين لهذا المنهج بقولهم : << إن معرفة الله لا تتأتى بالنظر في الجواهر والأعراض وإن الذين فعلوا ذلك قد تكلفوا ما لا يجب عليهم ، وأصابوا من غامض العلم ما لا يقدر عليه العوام >> [30]. وبذلك أصبحت العقيدة علما نظريا بحتا ينظم المقدمـــات ويستخلص النتائج كما تفعل ذلك الآلات الحاسبة في العصر الحديث :<< وهكذا لخص الإمام النسفي جملة العقائد الإسلامية في أقل من صفحتين وأوجزها صـــاحب المواقف في صفحة يتيمة مفردة جعلها في آخر كتابه الموسوعي >>[31]

وقد أثر هذا الأسلوب فيها تأثيرا سلبيا ،وأبعدها عن مجالها الحقيقي الذي هو النفس البشرية بكل مستوياتها العقلية والوجدانية إلى مجال المماحكات اللفظية والجدالات الفلسفية ،فبعد أن كانت شعورا حيا يغمر الإنسان فيوجه طاقاته نحو الخير والصلاح ، ويملأ جو انحه بالرغبة في الله والرهبة منه ، والطمع في جزائه والخوف من عقابه ،وبعد أن كانت دافعا إلى تعمير الأرض ،والجهاد لتخليص العباد من العبودية لغير الله تحولت إلى مقولات فلسفية جامدة يتبادلها

---

[30] الغالـــي ،د. بلقاسم <<علم الكلام القرآني >> مجلة المسلم المعاصر . س 16 . ع 62 . 1992 م ـص 88 .

[31] فــتاح ، عــرفان عبد الحميد ، " منهج المتكلمين ، دراسة وتقويم " مجلة إسلامية المعرفة . س2 ، ع8 ، أبريل 1997 م ، ص 107 .

الخصمان ،وليس فيها ما يثير الوجدان ويصلح الأخلاق ،أو يسمو بالنفس ،أو يطهر القلب من المعاصي ،أو يحث على الخير أو يهذب السلوك ،مما جعل العقيدة تفقد حيويتها وفعاليتها وسموها في هذا الوسط الجاف الذي يعطي الأولوية للاستدلال العقلي .وقد صور أحد العلماء الحالة التي آلت إليها العقيدة بسبب ذلك في هذه الحادثة الطريفة فقال : << تقابل رجلان وتكلما في الله فقال الأول : إنه لايد له ولا جارحة ولا يرى بالأبصار ، واستطرد في نفي الصفات عنه كما يفعل المعتزلة ، وقال الآخر : إن له يدا وساقا ويمينا وعرشا يستقر عليه وأثبت له كل ما تثبته المجسمة للذات الإلهية من أعضاء ، واختصما كلّ يتعصب لرأيه ، ثم إتفقا على أن يحتكما إلى أول قادم في الطريق ، وعندما قدم عليهم رجل وعرضا عليه المسألة فقال : أما أحدكما فيتكلم عن عــدم (أي عن شيء لا وجود له بتاتا) وأما الآخر فيتكلم عن إنسان ، تعالى الله عن قولكما علوّا كبيرا >> [32] .

وهذا هو السبب الذي جعل العقيدة يختلف تأثيرها في الأجيال اللاحقة عن تأثيرها في الجيل القرآني الأول الذي أخذها عن الرسول صلى الله عليه وسلم بأصولها القرآنية ، وفهمها وفق المعهود من أساليب العرب في كلامهم ، فآمن بالله الواحد الأحد المنزه عن الشرك ، وبأنبيائه وبخاتم رسله وبالحساب في حياة أخرى ، ولم يفكر الصحابة في جزئيات هذه العقائد ولم يتعرضوا لماهياتها : << بل صرفوا جهودهم إلى المسائل العملية فأنتجوا فيها فكرا تشريعيا عمليا رائعا ، وحققوا انتصارات عظيمة في الميادين الداخلية والخارجية ، حيث نقلوا

---

[32] صبحي ، د. أحمد محمود . في علم الكلام . ج1 ، ص352 .

الإسلام إلى العالم فهدوا به أمما وشعوبا ورفعوا راية الحق والعدل والخير والسلام والتوحيد في بلاد شاسعة >>[33] .

فلما انتقلت العقيدة إلى التنازع الكلامي والجدل العقلي ، اهتز الإيمان في القلوب وتزعزع في النفوس ، ولم تعد ذلك التيار الحي المتوثب الذي يوجه الفرد ، ويسيطر على سلوكه ، وعجز عامة الناس عن فهم هذه المقولات الفلسفية فتحولت عندهم العقائد إلى ركام ضخم من البدع والخرافات .

ومن الأمثلة الكثيرة على هذا التعقيد الذي اتسمت به الأفكار الكلامية ما يقوله الصفاتية : << الصفات ليست عين الذات ولا غير الذات ولا يمكن القول إن علم الله هو الله ، أو أن علم الله عالم وعلمه هو هو ، وإنــما معنى ذو علم ، فالله عالم بعلم ، قادر بقدرة ، حي بحياة ، مريد بإرادة ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، متكلم بكلام قديم ، ولم يزل سبحانه عالما ، قادرا ، حيا ، مريدا ، سميعا ، بصيرا ، متكلما ، ومعنى أن الله عالم أن له علما وأنه قادر أن له قدرة وكذلك الأمر في سائر الصفات ، وليس مفهوم الــذات إنه عالم أو قادر أوحي ... وإنما هي صفــات قائمة بالذات لا هي هو ولا هي غيره >>[34] .

وقال المعتزلة : إن قدرة الله هي الله ، وعلم الله هو الله ، وليست القدرة هي القادر ، ولا العلم هو العالم ، ولكن من ناحية أخرى لا يمكن أن يُتَصَوَّرَ القادرُ مجردا عن القدرة ، ولا العالم وقد تعرى عن العلم . فالعلم والقدرة والحياة صفات مشتركة موجودة في الأذهان لا في الأعيان ، بينما الموجود في الأعيان مختص لا اشتراك فيه ، إنه يعرض للذهن ذاتا وصفة كُلٍّ على حدة ، فليست الصفة هي نفس الذات ومع ذلك لا تنفك صفة العلم عن

---

[33] عبد الحميد ، د. محسن ، تجديد الفكر الإسلامي ، ص36 .

[34] صبحي ، د. أحمد محمود في علم الكلام ، ج1 ، ص320 .

العالم في الخارج [35] وذهبوا إلى شأوٍ بعيد في أبحاث كلامية مطولة ومعقدة حول الذات والصفات .

بينما أعرض السلفية الذين آثروا الاقتداء بالسلف الصالح في الاعتقاد عن كلّ هذه المجادلات والتعقيدات ، ووجدوا لكثير من المسائل الكلامية حلا يسيرا على أساس التحليل اللغوي والبحث الفقهي فجاء طرحهم بسيطا ومقنعا في آن واحد مرضيا لجمهور المسلمين ، ومنه ما أورده الطحاوي في مشكلة الصفات حيث قال : << إنك إذا قلت أعوذ بالله فقد عُذْتَ بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال الثابتة له عزّ وجلّ والتي لا تنفك عنه بوجه من الوجوه ، وإذا قلت أعوذ بعزة الله فقد عذت بصفة من صفات الله ومع ذلك لم تعذ بغير الله ، وهذا المعنى يُفْهَمُ من لفظ الذات ، فإن الذات في معناها لا تستعمل إلا مضافة أي ذات وجود ، ذات قدرة ، ذات عزّ ، ذات علم ، فذات كذا بمعنى صاحبة ، تأنيث ذو ، هذا أصل معنى الكلمة.، فَعُلِمَ أن الذات لا يُتَصَوَّرُ انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه ، وإن عَرَضَ للذهن افتراض ذات مجردة عن الصفات ، فإنه تماما كما يُعْرَضُ المحال . وقد قال صلى الله عليه وسلم : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد ، أعوذ بكلمات الله التامات من كل ما خلق ، ولم يُعْــذْ النبي عليه السلام بغير الله >>[36]

---

[35] صبحي ، د. أحمد محمود في علم الكلام ، ج1، ص330

[36] الطحــاوي ، أبو جعفر ، شرح الطحاوية على العقيدة السلفية . شرح : صدر الدين بن أبي العز الحنفي ، . ص64 .

ولعل هذا الإيغال في التجريد ، واستبعاد كل تصور ذوقي وشعوري وجداني من علاقة الإنسان بربه هو الذي حدا بالغزالي إلى تسمية كتابه : إحياء علوم الدين ، في محاولة منه لإعادة دفقة اليقين وحرارة العاطفة إلى العقيدة [37]

هـ ـ شيوع روح التعصب بين مختلف الفرق الكلامية ، وجنوح المتخاصمين إلى إفحام خصومهم ، وتبادل الاتهامات بالكفر والإلحاد ، والسعي إلى إتقان وسائل الجدل وطرائق المناظرة من أجل الغلبة والظهور وليس لنصرة الحقيقة والدفاع عن الدين ، كما لعبت السياسة دورا في إيقاد نار الخلاف بين فرق المتكلمين بالانتصار لفرقة ضد أخرى ، مما أدى إلى تمزيق شمل المسلمين ، وصدور أحكام خطيرة في حق بعضهم بعضا ، وميل آخرين إلى تغيير الحقائق وتزييف الوقائع وتحريف أقوال الخصم وهو ما أشار إليه الأشعري بقوله : << رأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات ، ويصنفون في النحل والديانات بين مقتصد فيما يحكيه ، وغالط فيما يذكره من قول مخالفيه ، وبين متعمد للكذب في الحكاية إرادة التشنيع على من يخالفه وبين تارك للتقصي في روايته عن اختلاف المختلفين ، وبين من يضيف إلى قول مخالفيه ما يظن أن الحجة تلزمهم به ، وليس هذا سبيل الربانيين ولا سبيل الفطناء المميزين >>[38]

وعلى الرغم من أن كبار المتكلمين قد ألزموا أنفسهم الوقوف عند الحقيقة المجردة ، وتحري الدقة والموضوعية في مناقشة آراء خصومهم ، إلا أن عددا منهم لم يتمكن من الوفاء بذلك الالتزام لأنهم كانوا : << يحيون أجواء فكرية وتاريخية اتسمت بالاستقطابات المذهبية الحادة ، والنظرة الأحادية المغلقة

---

[37] فتاح ، عرفان عبد الحميد . " منهج المتكلمين دراسة وتقويم ". مجلة إسلامية المعرفة ، س2 ، ع8 ، أفريل 1907 م . ص107

[38] الأشعري ، أبو الحسن ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، المقدمة .

على ذاتها ، والتي لا ترى الحق إلا فيما تعتقده من رأي ونظر >>[39] ، ولعل أوضح دليل على ذلك تلك الأحكام المبالغ فيها التي أصدرها البغدادي(ت 429 هـ) الذي كان من أهل السنة والجماعة ، والذي لم يتورع عن تكفير الخوارج والمعتزلة ، وتحريم الصلاة عليهم والصلاة خلفهم ، واعتبار أموالهم فيئا ، وعدم التوارث بينهم وبين أهل السنة [40] .

ومما لا شك فيه أن جميع هذه الأمثلة وغيرها كثير مما شابها التعصب المقيت قد وقعت ضحية سياسة القهر والإكراه ، وإلزام الخصوم بما لا يلزم عن مذهبهم ، وفي ذلك تعارض واضح وصارخ مع منهج القرآن الكريم القائم على أساس منع الإكراه في الدين : << إن القرآن الكريم في تأكيده وتقريره مبدأ منع الإكراه في الدين قد أثبت للبشرية قاعدة دينية خلقية مفادها : أن الإيمان قضية باطنية خالصة وأنه لابد أن يكون عن اختيار مبني على الإدراك واليقين >>[41] .

---

[39] فتاح ، عرفان عبد الحميد . " منهج المتكلمين دراسة وتقويم ". مجلة إسلامية المعرفة ، س2 ، ع8 ، أفريل 1907 م . ص107

[40] البغدادي ، عبد القاهر ، الفرق بين الفرق ، ص357 .

[41] فتاح ، عرفان عبد المجيد ، مرجع سابق ، ص106 .

الفصل الخامس

مصـــادر علـــم الكـــلام

1 ـ الإبانة عن أصول الديانة :

لأبي الحسن الأشعري(ت 330 هـ)

يعد كتاب الإبانة من مصادر العقيدة السلفية على طريقة الأشاعرة ، وهو المذهب الكلامي الذي تبنّى عقيدة أهل السنة والجماعة وعالجها بطريقة عقلية توفق بين النص والنقل ولا تسرف في التأويلات ، ولا تخوض في المتشابهات

وقد أعلن فيه مؤلفه معارضته القوية للمعتزلة والقدرية ومتابعته للإمام أحمد بن حنبل فقال في مقدمته : << أما بعد . فإن كثيرا من الزائغين عن الحق من المعتزلة وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم ومن مضى من أسلافهم ، فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلا لم يترل الله به سلطانا ، ولا أوضح به برهانا ، ولا نقلوه عن رسول رب العالمين ، ولا عن السلف المتقدمين فخالفوا روايات الصحابة رضوان الله عليهم عن نبي الله صلوات الله عليه وسلامه في رؤية الله عز وجل بالأبصار ... وأنكروا شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم للمذنبين ... وجحدوا عذاب القبر ... ودانوا بخلق القرآن فزعموا أن القرآن كقول البشر ، وأثبتوا أن العباد يخلقون الشر نظيرا لقول المجوس ... وزعمت القدرية أن الله عز وجل يخلق الخير وأن الشيطان يخلق الشر ... وكذلك جميع أهل البدع من الجهمية والمرجئة والحرورية ، أهل الزيغ فيما ابتدعوا وخالفوا الكتاب والسنة >>([1]) .

([1]) الأشعري ، أبو الحسن ، الإبانة عن أصول الديانة ، ص11 ـ 12 ـ 16 .

وبعد أن عرض لأمهات القضايا الكلامية التي يعد القول بها خروجا عن عقيدة السلف النقية قال : << فإن قال لنا قائل قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذي تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون ، قيل له : قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا عز وجل ، وبسنة نبينا صلى الله عليه و آله وسلم ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل نضر الله وجهه ، ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون ، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين >>[2].

ويرى أحمد محمود صبحي أن الأشعري قد ألف هذا الكتاب مباشرة بعد تحوله من مذهب الاعتزال الذي كان أحد ممثليه الكبار إلى مذهب أهل السنة بعد أن مضت عليه أربعون سنة يدعو فيها للمعتزلة ويدافع عنهم . ومما يدل على ذلك ما يحمله في ثناياه من هجوم عنيف على المعتزلة وتشهير بهم وبآرائهم ، وشدة في إدانتهم وفي ذلك يقول : << أما الإبانة فيبدو أنه ألفه عقب التحول ، لأنه يحمل خصومة مسرفة للمعتزلة ، والتحول المذهبي لا يعرف عادة الاعتدال ، وإنما انتقال من تأييد إلى عداوة ، وأشد ما تكون العداوة عقب التحول ، و في الإبانة حملة شعواء على المعتزلة وعرض مشوه لأفكارهم مع معرفة الأشعري الدقيقة والعميقة بحقيقة آرائهم >>[3] .

---

[2] الأشعري ، أبو الحسن ، الإبانة عن أصول الديانة ، ص 17 .
[3] صبحي ، د. أحمد محمود ، في علم الكلام ، ج2 ، ص56 .

ويشتمل الكتاب على ستة عشر بابا : الباب الأول في قول أهل الزيغ والبدعة ، والباب الثاني في إبانة قول أهل الحق والسنة ، والباب الثالث في الكلام في إثبات رؤية الله تعالى بالأبصار في الآخرة ، والباب الرابع في الكلام في أن القرآن كلام الله غير مخلوق والباب الخامس فيما ذكر من الرواية في القرآن ، والباب السادس في الكلام على من وقف في القرآن وقال لا أقول إنه مخلوق ولا أقول إنه غير مخلوق .

أما الباب السابع فهو في ذكر الاستواء على العرش ، والباب الثامن في الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين ، والباب التاسع في الرد على الجهمية في نفيهم علم الله تعالى وقدرته وجميع صفاته ، والباب العاشر في الكلام في الإرادة والرد على المعتزلة في ذلك ، والباب الحادي عشر في تقدير أعمال العباد والاستطاعة والتعديل والتجويز والباب الثاني عشر في ذكر الروايات في القدر ، والباب الثالث عشر في الكلام في الحوض والباب الخامس عشر في الكلام على عذاب القبر ، وختم الكتاب بالباب السادس عشر الذي تحدث فيه عن إمامة أبي بكر الصديق وبين أنه أفضل الصحابة ، كما نص على ثبوت إمامة الخلفاء الثلاثة من بعده : عمرو عثمان وعلي رضي الله عنهم.

توجد منه نسخ مخطوطة عديدة منها : واحدة بدار الكتب بالقاهرة ، وأخرى بالخزانة التيمورية تحت رقم : عقائد 107 ، وأخرى بالجامعة العثمانية بحيدر آباد تحت رقم 503 ([4]) .

كما طبع الكتاب طبعات عديدة : الأولى في الهند بحيدر آباد الدكن في شهر ذي الحجة عام 1321 هـ ، والثانية في مصر بالمطبعة المنيرية دون تاريخ ، والثالثة بمطبعة الجمل المصرية عام 1349 هـ ، والرابعة بمصر أيضا عام

([4]) سزكين ، فؤاد ، تاريخ التراث العربي ، ج2 ، ص377 .

1397 هـ بتحقيق الدكتورة فوقية محمود التي قالت إنها اعتمدت في ذلك على أربع نسخ خطية ، وقدمت للكتاب بمقدمة و أرفقته بحواشي تبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف نص الإبانة([5]) ، والرابعة في دمشق صدرت عن مكتبة دار البيان عام 1401هـ ـ 1981م، بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط الذي اعتـنى أيضا بتخريج آياته وأحاديثه .

2 ـ لإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد :

لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني (ت 478 هـ)

يعد هذا الكتاب أحد مؤلفات العقائد على مذهب الأشعري . ألفه صاحبه لبيان العقائد الدينية والاستدلال لها ، ثم الدفاع عنها ومناهضة أصحاب المقالات والمذاهب المخالفة للدين ، والتي كان عصره يموج بها .وقد تميز أسلوبه بالقوة والوضوح والتركيز في غير تعقيد ولا غموض ، كما سلك سبيلا وسطا في عرض القضايا الكلامية حيث لم يمـل إلى الإسهاب والاستطراد الذي يدعو إلى الملل والسآمة ، ولم يوجز إيجـازا مخلا يؤدي إلى اللبس والإبهام ([6]) .

قسم الجويني كتابه إلى أبواب ، وقسم كل باب إلى فصول وعالج فيه قضايا العقيدة التي كانت شائعة في عصره ، منتصرا للعقيدة الأشعرية التي كان أحد أقطابها .فعرض أولا للإلهيات : وفيها تحدث عن أحكام النظر ، وحقيقة العلم ، وحدوث العالم ، وإثبات العلم بالصانع وصفاته ، وجواز رؤية الله عز وجل ، وخلق الأعمال ، والاستطاعة وحكمها ، والتعديل والتجوير ، والصلاح والأصلح .

([5]) الأشعري ، أبو الحسن ، الإبانة عن أصول الديانة ، تقديم : بشير عون ، ص6

([6]) الجويني ، أبو المعالي ، الإرشاد ، تقديم : محمد يوسف موسى وزميله ، ص : ص .

وعالج ثانيا قضية إثبات النبوات ، وذكر جملا من أحكام الآخرة ، وختم الكتاب بالكلام على الإمامة وما جرى لبعض الصحابة وأحكام ذلك .حققه المستشرق لوسياني ولكنه توفي عام 1931 م قبل أن يتمكن من نشره . وحققه أيضا الدكتور محمد يوسف موسى وزميله عبد المنعم عبد الحميد وقدما له بمقدمة وطبع بمطبعة الخانجي عام 1950م([7]) .

3 ـ رسالة استحسان الخوض في علم الكلام :

لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت 330 هـ) .

وهي رسالة في الرد على من ظن أن الاشتغال بالكلام بدعة . وقد كان الفقهاء والمحدثون يعارضون بشدة الخوض في علم الكلام ، ويتهمون المتكلمين بالزندقة، ويتحاشون الخوض في العقائد بالعقل ، ويكتفون بالتسليم بكل ما جاء في القرآن والسنة كما ورد . وقد ألّف الأشعري هذا الكتاب بعد أن ترك الاعتزال وتقرب من أهل السنة ، وأعلن معارضته للإسراف في تحكيم العقل في الأفعال الإلهية كما فعل المعتزلة ، ليبين أن علم الكلام إذا التزم جادة الصواب في تقرير العقائد ، فإنه سيكون من أفيد العلوم .

وقد قدم للكتاب بقوله : << أما بعد فإن طائفة من الناس جعلوا الجهل رأسمالهم ، وثقل عليهم النظر والبحث عن الدين ، ومالوا إلى التخفيف والتقليد ، وطعنوا على من فتش عن أصول الدين ، ونسبوه إلى الضلال ، وزعموا أن الكلام في الحركة والسكون ، والجسم والعرض ، والأكوان والجزء والطفرة ، وصفات الباري عز وجل بدعة وضلالة ، وقالوا لو كان ذلك هدى ورشادا لتكلم فيه النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه وأصحابه ... >>([8]) .

([7]) صبحي ، د. أحمد محمود ، في علم الكلام ، ج2 ، ص147 ـ 148 .
([8]) الأشعري ، أبو الحسن ، رسالة استحسان الخوض في علم الكلام ، ص10 .

وبعــدما بسط اعتراضات المخالفين وحججهم في رفض علم الكلام قال : << الجواب عنه ثلاثة أوجه >> ثم فصل في عرض محاسن علم الكلام واستحسان الخوض فيه .توجد نسخة مخطوطة منه في فيض الله بالهند تحت رقم 2161 /2 ، كما طبــع في حيدر آباد عام 1323 هــ ومرة أخرى عام 1344 هــ ، ونشره الأب مكارثي اليسوعي في بيروت عام 1953م ([9]) .

4 ـ الاقتصاد في الاعتقاد :

لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي(ت 505هــ)

يعد حجة الإسلام أبو حامد الغزالي معلما بارزا من معالم الفكر الإسلامي ، فقد جاء في وقت اكتملت فيه صياغة العقيدة الأشعرية ، فحدد ــ من خلال ثقافته الخصبة المتنوعة العميقة والشاملة ــ علم الكلام حين أبعده عن العوام وأبعد العوام عنه مطالبا بالاقتصاد في الاعتقاد وإلجام العوام عن علم الكلام ، وقدم تربية جمهور المسلمين بروح الإيمان على تربيتهم بمنطق الجدل ، و أعلن أن علم الكلام فرض كفاية لا يلزم إلا بعض المسلمين للدفاع عن العقيدة ، وبيان تلبيسات وأغاليط الزنادقة والمخالفين .

كما أبطل دعوى الفلاسفة في التوفيق بين الدين والفلسفة أو ما عرف بالتوفيق بين الحكمة والشريعة ، وهاجم الفلسفة اليونانية هجوما عنيفا ، وأثبت خطأ الأساس الذي قامت عليه وهو طلب الحق عن طريق العقل ، وبذلك قضى عليها : << فلــم يعــرف مــن بعده فيلسوف على نحو الفارابي وابن سينا قبله >>([10]).

([9]) سزكين ، فؤاد ، تاريخ التراث العربي ، ج2 ، ص376 .
([10]) صبحي ، د. أحمد محمود ، في علم الكلام ، ج2 ، ص166 ـ 167 .

وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد من أشهر كتبه الكلامية ، وقد عالج فيه جميع مسائل الإلهيات وما وراء الطبيعــة معالجة فلسفية مستندة إلى القواعد الإسلامية . ويرى كريم عزقول أن هذا الكتاب يمثل عمل الغزالي البنائي في حقل ما وراء الطبيعة. وهو ــ في نظره ــ من أوسع مؤلفاته في ميدان العقائد ، خصصه للبحث العقلي عن قواعد العقائد عند أهل السنة ([11]).

قال الغزالي في مقدمة كتابه " الاقتصاد في الاعتقاد " : << الحمد لله الذي اجــتبى من صفوة عباده عصابة الحق وأهل السنة ... وعمر أفئدقم بأنوار اليقين حتى اهتدوا بها إلى أسرار ما أنزله على لسان نبيه وصفية محمد صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين ... وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا أن من ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد ، واتباع الظواهر ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر ، وأن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ما أتوا به إلا من خبث الضمائر . فميل أولئك إلى التفريط وميل هؤلاء إلى الإفراط وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط ، بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد والاعتماد على الصراط المستقيم ... وسيتضح لك أيها المشوق إلى الاطلاع على قواعد عقائد أهل السنة ، المقترح تحقيقــها بقواطــع الأدلــة أنه لم يستأثر بالتوفيق للجمع بين الشرع والتحقيق فريق سوى هذا الفريق >>([12]) .

وقد رتب كتابه على أربعة تمهيدات تجري مجرى التوطئة والمقدمات ، بين فيها أن علم الكلام من المهمات في الدين ، وأنه من فروض الكفاية ،

([11]) عزقول ، د. كريم ، العقل في الإسلام ، ص65 .
([12]) الغزالي ، أبو حامد ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ص4 .

وأوضح مناهج الأدلة التي اتبعها في الكتاب ، وعلى أربعة أقطاب تجرى مجرى المقاصد والغايات وهي كالتالي :

القطب الأول : بحث فيه قضية النظر في ذات الله تعالى ، وفي القدم والبقاء وصفة صانع العالم . كما أثبت بالأدلة أن الله تعالى واحد متره عن الولد والشريك

القطب الثاني : بحث فيه الصفات السمعية لله عز وجل وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع ، والبصر ، والكلام ، وما تختص به آحاد الصفات وما تشترك فيه ، وأسهب في الحديث عن كل صفة ، ثم تحدث عن أحكام الصفات ، وأها ليست هي الذات بل زائدة ، وأها كلها قائمة بذاته وأها قديمة ، وأن الأسامي المشتقة لله تعالى من هذه الصفات صادقة عليه أزلا وأبدا .

القطب الثالث : خصصه للحديث عن أفعال الله وأها جائزة ، وعرض فيه سبع دعاوى هي : أن الله عز وجل يجوز أن لا يكلف عباده ، وبـيَّن معنى الحسن والقبح العقليين ، والثانية أن لله تعالى لا يكلف عباده ما يطيقون ومالا يطيقون . والثالثة أن الله تعالى قادر على إيلام الحيوان البرئ عن الجنايات ، والرابعة أنه لا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده ، والخامسة أنه تعالى إذا كلف العباد فأطاعوه لم يجب عليه الثواب والسادسة أنه لو لم يرد الشرع لما كان يجب على العباد معرفة الله تعالى ، والسابعة أن بعثه الأنبياء جائز .

القطب الرابع : في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي بيان وجوب التصديق بأمور ورد الشرع بها . وفي الإمامة التي أوضح فيها وجوب نصب الإمام شرعا ، وفصل في الشروط الواجب توفرها في الإمام حتى يستحق هذا المنصب ، ثم شرح عقيدة أهل السنة في الصحابة والخلفاء الراشدين رضي

الله عنهم ، ناعيا على طائفة من الناس إسرافهم في الثناء عليهم حتى قادهم ذلك إلى ادعاء العصمة لهؤلاء الأئمة ، وعلى الطائفة الأخرى غلوهم في الحط من أقدارهم وسبهم ، والنيل منهم ، وطالب بالاقتصاد في الاعتقاد ، وإطلاق اللسان بالثناء على جميع السلف الصالح إذا كانوا من الصحابة ، والاعتقاد بأفضلية الخلفاء الأربعة عليهم استنادا إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المقام .

وختم الغزالي القطب الرابع بباب : بيان من يجب تكفيره من الفرق ، متوخيا الحذر في تكفير الفرق المسلمة ، مشددا على ضرورة التدقيق في هذا الأمر الذي يعده فقهيا بالدرجة الأولى . وعلى هذا الأساس استند في تكفير الفرق على أن كل من كذب محمدا صلى الله عليه وسلم فهو كافر ، أي مخلد في النار بعد الموت . وأدرج تحت هذا الأصل : اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان لأن تكفيرهم منصوص عليه في الكتاب ومجمع عليه بين الأمة ، والبراهمة المنكرين لأصل النبوات ، والدهرية المنكرين لصانع العالم ، والفلاسفة الذين ينكرون حشر الأجساد والتعذيب بالنار والتنعيم في الجنة ، وقولهم إن الله لا يعلم الجزئيات وتفصيل الحوادث وإنما يعلم الكليات .

أما الفرق الإسلامية الأخرى كالمعتزلة والمشبهة وبعض من ينكر أصلا من أصول الدين مع الإيمان بالله ورسوله ، فإن الغزالي لا يسوغ تكفيرهم ويترك أمرهم لاجتهاد الفقهاء الذين يقيسون أعمالهم وأقوالهم ويرجحون الأقرب إلى الصواب : << فإن استباحـــة الدماء و الأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ . والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم >>[13].

([13]) الغزالي ، أبو حامد ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ص157 .

وفي ختام كتابه قال الغزالي : << فقد أظهرنا الاقتصاد في الاعتقاد وحذفنا الحشو والفضول المستغنى عنه ، الخارج عن أمهات العقائد وقواعدها ، واقتصرنا من أدلة ما أوردناه على الجلي الواضح الذي لا تقتصر أكثر الأفهام عن دركه >>[14] . طبـــع الكتاب 1983م

5 ـ تبصرة الأدلة :

لأبي المعين ميمون بن محمد النسفي (ت 508 هـ)

هذا الكتاب هو المصدر الثاني بعد كتاب التوحيد لأبي منصور الماتريدي في بيان مذهب الماتريدية ، وقد اعتمد عليه كل من جاؤوا بعده . والإمــام أبــو المعين النسفي من أكبر من قام بنصرة مذهب أبي منصور الماتريدي : << وهو بين الماتريدية كالباقلاني والغزالي بين الأشعرية >>([15]) ، لذلك كان كتابه مصدرا هاما من مصادرهم . وعلى الرغم من القيمة العلمية التي تكتسيها العقائد النسفية للإمام عمر النسفي (ت537 هـ) وما نالتـه من شهرة و إقبال لدى علماء السنة إلا أنها تعد بالنسبة لكتاب تبصرة الأدلة كالفهرست ([16]).

وقد استـند إليه كثير من متكلمي الماتريـدية في مناظراتهم ، واعتمدوا عليه في صياغة مذهبهم وتطويره ، ومنهم الإمام نور الدين الصابوني (ت 580 هـ) الذي قال عنه : << إني كنت قد قرأت كتاب تبصرة الأدلة

([14])الغزالي ، أبو حامد ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ص161 .
([15]) الماتريدي ، ، كتاب التوحيد ، تقديم : د. فتح الله خليف ، المقدمة ، ص5
([16]) خليفة ، حاجي ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ج1 ، ص294 .

لأبي المعين النسفي ، واعتقدت أنه لا مزيد على ذلك الكتاب في التحقيق والتدقيق >>[17] .

ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ، وأشار إلى أنه قد احتوى بين دفتيه معظم المسائل الكلامية ، ناهجا في ذلك مسلكا وسطا بين الإيجاز المخل والاستطراد الممل ، وفي ذلك يقول : << جمع فيه ما جل من الدلائل في المسائل الاعتقادية ، وبين ما كان عليـــه مشائخ أهل السنة ، وأبطل مذاهب خصومهم معرضا عن الاشتغال بإيراد ما دق من الدلائل ، سالكا طريقة التوسط في العبارة بين الإطناب والإشارة فجاء كتابا مفيدا إلى الغاية >>[18] .

والكتاب يقع في مجلد ضخم ، توجد نسخة مخطوطة منه بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم 42 توحيد .

6 ـ كتاب التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة :

لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت 403 هـ)

حاول الباقلاني في هذا الكتاب أن يضع مصنفا جامعا يشتمل على أهم مسائل علم الكلام وقضاياه من وجهة نظر المدرسة الأشعرية التي كان له الفضل الكبير في تنهيج مذهبها الكلامي والاعتقادي ، وبنائه بناء منظما لا من حيث الطريقة المنطقية الجدلية فحسب بل من حيث وضع المقدمات التي تبنى عليها الأدلة ، ومن حيث ترتيب هذه المقدمات بعضها بعد بعض [19].

---

(17) KHOLEIF , FATHALLAH ,Astudy on Fakhr al DIN AL - RAZI.P23 -24

(18) خليفة ، حاجي ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ج1 ، ص294 .

(19) صبحي ، د. أحمد محمود ، في علم الكلام ، ج2 ، ص90 .

ويعد الباقلاني أول الأشاعرة الذين أقحموا الموضوعات الطبيعية في دعم الكلام الأشعري : << إقحاما قصد به إثبات عقائد إيمانية ، وكيّف فلسفة الطبيعة تكييفا مذهبيا أشعريا >>([20])، وكتابه " التمهيد " أول متن مفصل شامل لموضوعات علم الكلام ، وهو الذي أصبح فيما بعد النموذج الذي احْـتُذِيَ في ترتيب موضوعاته من طرف من خلفه من الأشاعرة كالبغدادي في " أصول الدين " والشهرستاني في " نهاية الإقدام " ، وإمام الحرمين في الإرشاد والشامل ، والنسفي في العقائد العضدية ([21])

وقد ظهر الباقلاني في كتابه هذا عالما شامخا ، مالكا لثقافة موسوعية ، ملما بالملل والنحل والفرق والآراء التي كانت شائعة في البحوث العقدية في القرنين الثالث والرابع الهجريين ([22]). كما حفل الكتاب بالحجج والأدلة التي لاحق بها خصومه ، وبدا فيه قويا ، قادرا على التطويل في المناظرة ، متمكنا من أساليب الحجاج .

استهله بالحديث عن المعرفة التي يجب اكتسابها ليتمكن الإنسان من النظر والوصول إلى معرفة الله وصفاته ، وفي هذا الإطار يشير إلى حقيقة العلم ومعناه . والفرق بين علم الله القديم وعلم الإنسان المحدث . كما يتناول أنواع الاستدلال ، ويعرض لنظرية الجزء الذي لا يتجزّأ تمهيدا لإثبات وجود الصانع باعتباره علة العالم ولا بد لكل معلول من علة ، وأثار ــ بعد ذلك ــ قضية صفات الله الذاتية ثم الفعلية ، وأثناءها ذلك ردّ على أصحاب الطبائع الذين يجعلون للأجسام أفعالا تصدر عنها لطبع ذاتي فيها ، بينما لا يكون الفعل إلا عن حي عالم قادر .

([20])صبحي ، د. أحمد محمود ، في علم الكلام ، ج2 ، ص91 .
([21]) بدوي ، عبد الرحمن ، مذاهب الإسلاميين ، ج1 ، ص85 .
([22]) مخلوف ، عبد الرؤوف ، الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ، ص113 .

وتضمن الكتاب أيضا ردّا على أصحاب الديانات الأخرى كالمجوس القائلين بالتثنية ، والنصارى القائلين بالتثليث ، واليهود المنكرين لنسخ الشرائع ، والبراهمة المنكرين للنبوات ، مُثبِتًا بعث الرسل وإعجاز القرآن ، وصدق نبوّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . كما احتوى عرضا لآراء المذاهب الإسلامية المخالفة ، وتفصيل في الردّ على المجسّمة والشيعة .توجد نسخة مخطوطة منه في آيا صوفيا رقم 2201 ، ونسخة أخرى في باريس تحت رقم 6090 . شرحه القاضي أبو محمّد عبد الجليل بن أبي بكر الربعي في مؤلف عنوانه " التسديد في شرح التمهيد " ([23]).

حققه الدكتور محمود الخضيري ، والدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة عن مخطوط ناقص ونشراه عام 1947 ، ثم نشره الأب رتشارد مكارثي اليسوعي عن مخطوطات كاملة ، ولكنه أسقط الأبواب المتعلقة بالإمامة ، وصدرت نشرته ضمن منشورات جامعة الحكمة في بغداد عام 1957 ([24]) .

7 ـ كتاب التوحيد :

لأبي منصور محمد بن محمد الماتريدي (ت 333 هـ) .

يعد هذا الكتاب المصدر الأول في العقائد لأتباع المدرسة الماتريدية التي كانت تتبنى عقيدة أهل السنة والجماعة في بلاد ما وراء النهر . وهو من أقدم الوثائق الهامة التي تضمنت عرضا موسعا لآراء أصحاب المذاهب المخالفة للإسلام .وقد ضمن أبو منصور الماتريدي كتابه مسائل كلامية كثيرة ، حيث استهله بذكر فساد التقليد وبطلانه ، وبيان أن الإيمان لا يصح إلا إذا كان قائما على الاستدلال ، ثم عرض لنظرية المعرفة ، وبيّن مصادرها الأساسية التي لا

([23]) سزكين ، فؤاد ، تاريخ التراث العربي ، ج2 ، ص386 .
([24]) صبحي ، د. أحمد محمود ، في علم الكلام ، ج2 ، ص94 .

يستغني عنها أحد وهي الحس والخبر والعقل ، ثم أورد الأدلة التي تبرهن على حدوث الأجسام وتثبت ــ في المقابل ــ وجود الله ولزوم صفتي الخلق والإبداع له .

وبعد ذلك انتقل إلى عرض الأدلة التي تثبت وحدانية الله عز وجل ، ويستحيل معها التعدد ، ثم تناول بالدراسة صفات الله كالعلم والحياة والسمع والبصر والكلام والتكوين والرزق وغيرها .

كما عالج قضية أسماء الله وقال بتوقيفها ، مؤكدا أنه لا يجوز أن نسميه إلا بما سمى به ذاته وجـــاء به الشرع . وبسط القول في مسألة رؤية الله عز وجل ، وبيّن موقفه من الآيات المتشابهات التي ذهب فيها مذهب السلف حين قرر أن يقف عند ما جاء في النصوص من غير تفسير ولا تأويل ، مؤمنا بها كما جاءت من عند الله .

وتضمن الكتاب أيضا عرضا لقضية الجبر والاختيار التي ذهب فيها الماتريدي إلى أن الإنسان فاعل مختار على الحقيقة ، وأنه فاعل كاسب ، تأكيدا لمذهب الكسب الذي وضع لبنته الأولى الإمام أبو حنيفة النعمان ، وتناول مسألة مرتكب الكبيرة ، التي اتخذ منها موقفا وسطا ، فهو لا يكفره ولا يخليه من المسؤولية وإنما يرى أنه مذنب يرجو عفو الله ويخاف عذابه ، وهو لا يعترف بالمترلة بين المترلتين ولا بدرجة بين الإيمان والكفر التي يقول بها المعتزلة .

وأفرد الماتريدي في كتابه هذا ، عرضا لآراء مختلف الفرق التي كانت تناصب العقيدة الإسلامية العداء ، وتحاول النيل منها بما تثيره من قضايا إلهية ، وشبهات وشكوك مثل الدهرية والسمنية والسوفسطائية ، و الثنوية بفرقها المختلفة كالمنانية والديصانية والمرقيونيه ، والمجوس ونقض أقوالهم ، وأثبت نبوة

الأنبياء وبخاصة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وناقش آراء النصارى في المسيح ورد عليها .

توجد نسخة مخطوطة منه في كامبردج تحت رقم 167 ، ونسخة مصورة عنها بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم 26338 ب ([25]) . حققه الدكتور فتح الله خليف وطبع ببيروت طبعة أولى عام 1970 ، ([26])

8 ـ العقائد العضديـــة :

لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الأيجي (ت 756 هـ)

يعد هذا الكتاب من أهم مصادر المذهب الأشعري ، عرض فيه صاحبه لقواعد العقيدة على مذهب أبي الحسن الأشعري واعتبر أصحابه من الأشاعرة هم الفرقة الناجية التي أخبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة .

والعقائد العضدية هي آخر مؤلفات الأيجي ، حيث لم تمض اثنيا عشر يوما على فراغه من تأليفه حتى وافته المنية ([27]) .

وقد لقيت شهرة واسعة ، وإقبالا كبيرا من العلماء لما تميزت به من الدقة والتركيز ، ولذلك فقد وضعوا عليها عددا كبيرا من الشروح ، منها شرح محمد بن أسعد الصديقي المشهور بالجلال الدواني (ت908 هـ) والذي قال عنها : << إن العقائد العضدية لم تدع قاعدة من أصول العقائد الدينية إلا وأتت عليها ، ولم تترك من أمهاتها ومهماتها مسألة إلا وقد صرحت بها أو

([25]) سزكين ، فؤاد ، تاريخ التراث العربي ، ج2 ، ص379 .
([26]) الماتريدي ، أبو منصور ، كتاب التوحيد ، تقديم فتح الله خليف ، المقدمة ، ص57
([27]) خليفة ، حاجي ، كشف الظنون ، ج2 ، ص152 .

أومأت إليها >> ([28]) . طبـــع هذا الشرح بالمطبعة الخيرية بمصر عام 1322 هــ ، وعليه حاشيتان للعلامة عبد الحكيم السيالكوتي والشيخ محمد عبده ([29])

وممن وضع عليها حواشي نذكر : حسين الخلخالي الحسيني(ت 1014 هــ) والمولى أحمد بن محمد حفيد التفتازاني (ت 906 هــ) . والمولى حكيم شاه محمد بن مبارك القزويني (ت 920 هــ) وغيرهم ([30]) .

كما شرحه عصام الدين إبراهيم بن محمد الاسفراييني شرحا مبسطا وعلي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (ت 816 هــ) ، وافتخار الدين محمد الــدامغاني وسماه << القواعد الشمسية في شرح العقائد العضدية >> ([31]) وغيرهم كثير.

9 ـ العقائد النسفية

لنجم الدين أبي حفص النسفي(ت 537 هــ)

وهو متن مشهور في العقائد على مذهب الإمام أبي منصور الماتريدي . ويعد مصدرا هاما من مصادر علم الكلام في المدرسة الماتريدية ، لذلك فقد وجد اهتماما وعناية خاصة من العلماء الذين عكفوا عليه شرحا وتحليلا وتدريسا . قال عنه أحد شراحه : << والمختصر المسمى بالعقائد للإمام الهمام قدوة علماء الإسلام نجم الملة والدين عمر النسفي أعلى الله درجته في دار الإسلام ، يشتمل من هذا الفن على غرر الفوائد ، ودرر الفرائد في ضمن فصــول هـــي للدين قواعد وأصــول ، وأثناء نصــوص هي لليقيــن

([28])خليفة ، حاجي ، كشف الظنون ، ج2 ، ص152 .
([29]) الزحيلي ، د. محمد . مرجع العلوم الإسلامية ، ص359 .
([30]) خليفة ، حاجي ، كشف الظنون ، ج2 ، ص153 .
([31]) المرجع نفسه ، ج2 ، ص153 .

جواهـــر و فصوص ، مع غاية من التنقيح والتهذيب ، ونهاية من حسن التنظيم والترتيب >> [32] .

كما أشار كلود سلامة ــ محقق شرح العقائد النسفية للتفتازاني ــ إلى قيمة الكتاب العلمية ، ومكانته في علم الكلام فقال : << وهو أحد الكتب الرئيسية المعتمدة لتدريس علم الكلام في جامعة الأزهر وفي تونس وشمال إفريقيا عامة ، مما جعل الكثير من العلماء الذين تخرجوا من هذه الجامعة في العصر الحديث متأثرين من خلاله بالعقيدة الماتريدية كالإمام محمد عبده مثلا >>[33]

وهذا ما أكده فتح الله خليف ــ محقق كتاب التوحيد للماتريدي ــ عندما قال : << اتخذ الأزهر في مصر هذا الكتاب مصدرا أساسيا لدراسة التوحيد منذ زمان بعيد ، وما زال إلى يومنا هذا هو العمدة عند علماء الأزهر وطلابه في مادة التوحيد >> [34] .

وقد تناول فيه الإمام النسفي موضوع حقائق الأشياء وأنها ثابتة ، ثم حدد أسباب العلم في ثلاثة مصادر هي : الحواس السليمة ، والخبر الصادق ، والعقل ، وفصّـــل القول فيها ، ثم عرض للإلهام وأكد أنه ليس من أسباب المعرفة ، ولا يمكن اعتباره أحد مصادرها.

وفي ضوء هذه المقدمة بحث جملة من الموضوعات ورتبها على الشكل التالي : حدوث العالم والبرهنة على أن المحدث له هو الله تعالى ، البحث في صفاته عز وجل ،والتدليل على جواز رؤيته سبحانه وتعالى عقلا ووجوبها نقلا،كما تناول موضوع خلق أفعال العباد ،ومسألة الحسن والقبح ، ومعنى

([32]) التفتازاني ، مسعود بن عمر ، شرح العقائد النسفية ، ص3 .

([33]) المصدر نفسه ، تقديم كلود سلامة ، المقدمة ، ص5 .

([34]) الماتريدي ، ابو منصور ، كتاب التوحيد ، تقديم : فتح الله خليف ، المقدمة ، ص9 .

الاستطاعة والتكليف بما لا يطاق ، والرزق ، وعذاب القبر ونعيمه ، والبعث ومافيه ، وحكم مرتكب الكبيرة ، والشفاعة والإيمان ، ورسالات الأنبياء ، ومعجزاهم ، والملائكة ، والكتب ، والمعراج ، وكرامات الأولياء ، والإمامة ، وعلامات القيامة .

وقد لقيت عقائد النسفي اهتماما كبيرا من العلماء الذين تسارعوا إلى شرحها والتعليق عليها ، ومن بين هذه الشروح : شرح ابن سراج الذي سماه " القلائد " ، وشرح الإمام أبي عبد الله محمد بن زين الدين أسماه " القول الوفي بشرح عقائد النسفي" وشرح ابن حزم الأندلسي وسماه " الدرة " وشرح أحمد بن عثمان الهروي المعروف بملا زاده ، كما نظمها القاضي عمر بن مصطفى كرامة الطرابلسي في أرجوزة ([35]) ، وظفرت هذه الشروح أيضا بحواش عديدة

ويعد شرح مسعود بن عمر التفتازاني([36]) (ت 792 هـ) أهم هذه الشروح جميعا وقد سماه " شرح العقائد النسفية " ، فالتفتازاني من كبار ممثلي المدرسة الماتريدية ، وكتـابه : << من الكتب البارزة والمشار إليها في علم الكلام ، ونموذج ممتاز لمرحلة متأخرة من مراحل هذا العلم حيث تشابكت موضوعاته بموضوعات الفلسفة ، وحاول فيها أن يضم إليه كل ما يتعلق بالعلوم العقلية والدينية من منطق وفلسفة وفقه ، وهو يعطي صورة واضحة

([35]) التفتازاني ، ، شرح العقائد النسفية ، تقديم : كلود سلامة ،ص34 ــ 35 .

([36]) راجع ترجمته في : عجائب المقدور لابن عربشاه ، ج3 ، ص422 ، وبغية الوعاة للسيوطي ، ص391 ، وإعلام الأخيار للكفوي ، وروضات الجنّات لمحمد باقر الخوانساري ، ص309 ، والفوائد البهية لعبد الحي اللكنوي ، ص 128 ــ 130 ــ 134ــ 137 ، وشذرات الذهب لابن العماد ، ج6 ، ص319 ، وهدية العارفين للبغدادي ، ج2 ، ص129 ، ومفتاح السعادة ، ج1 ، ص152 ، وكشف الظنون ، ج1 ، ص222 ، والبدر الطالع للشوكاني ، ج2 ، ص303 ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج5 ، ص339 إلى 345 .

لآراء الماتريديين في هذه المرحلة التي تقلص الخلاف فيها بينهم وبين الأشاعرة الذين اقتربوا منهم أكثر من السابق >>[37].

وقد قدم التفتازاني لشرحه ـــ بعد أن عرف بالإمام النسفي صاحب العقائد ـــ بقوله : << فحاولت أن أشرحه شرحا يفصل مجملاته ، ويبين معضلاته ، وينشر مطوياته ، ويظهر مكنوناته ، مع توجيه الكلام في تنقيح ، وتنبيه على المرام مع توضيح ، وتحقيق للمسائل غبَّ تقرير ، وتدقيق للدلائل إثر تحرير ، وتفسير للمقاصد بعد تمهيد ، وتكثير للفوائد مع تجريد ، طاويا كشح المقال عن الإطالة والإملال ، ومتجافيا عن طرفي الاقتصاد والإطناب والإخلال >>[38] .

وحظي شرح التفتازاني باهتمام العلماء أيضا ، فعكفوا عليه يشرحونه ويضعون له الحواشي والتعليقات ، ومنها : حاشية رمضان أفندي ، وشرح الشيخ محمد بن محمد الشهير بابن الغرس الحنفي ، وحاشية المولى مصلح الدين القسطلاني ، وحاشية المولى عصام الدين إبراهيم بن محمد الاسفراييني ، وحاشية للمولى سنان الدين يوسف الحميدي ، وحاشية للقاضي شهاب الدين أحمد بن يوسف السندي سماها " تحفة الفوائد لشرح العقائد " ، وحاشية لإبراهيم اللقاني المعدي سماها " تعليق الفوائد على شرح العقائد " وغيرها كثير [39] .

توجد من شرح التفتازاني نسخ مخطوطة عديدة منها ثلاث نسخ بالمكتبة الظاهرية بدمشق تحت أرقام 10007 ، 4958 ، 5176 ، ونسخة بالمتحف البريطاني تحت رقم 4265 [40] .

---

[37] التفتازاني ، شرح العقائد النسفية ، تقديم : كلود سلامة ، المقدمة ، ص5 .
[38] المصدر نفسه ، ص4
[39] المصدر نفسه ، تقديم : كلود سلامة ، المقدمة ، ص33 ـــ 34 .
[40] المصدر نفسه ، تقديم : كلود سلامة المقدمة ، ص46 ـــ 47 .

وقد طبع هذا الشرح عدة طبعات قديمة ، منها طبعة كلكتا عام 1244 هـ . وطبعة دلهي عـام 1870 م وأخرى عام 1904 م ، وطبعة لوكناو عام 1876 م ، وأخرى عام 1888 م ، وثالثة عام 1890 م ، ورابعة عـام 1894 م ، وطبعة القسطنطنية عام 1297 هـ مع شرح الكتلي والخيالي ، وطبعة القاهرة عام 1297 هـ أيضا . كما ترجم إلى الفرنسية ، والألمانية والإنجليزية ، وطبعت ترجماته بجنيف عام 1790 م ، ونيويورك عام 1950 م([41]) ، و جميع هذه الطبعات القديمة محشوة بالأخطاء ، وبعيدة عن التحقيق الصحيح .

حققه كلود سلامة ، وصدر ضمن منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق عام 1974 م ، وقدم له بمقدمة تحدث فيها عن حياة التفتازاني وشهرته العلمية ، وتلاميذه ومؤلفاته ، وآرائه الكلامية ، كما خصص حيزا للتعريف بالإمام النسفي صاحب العقائد .

10 ـ نون التأويل :

لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت505 هـ)

ألف الغزالي هذا الكتاب ليجيب عن جملة من الأسئلة التي وجهت إليه فيما يتعلق ببعض الأحاديث والآثار التي أشكل على الناس فهمها على الوجه الصحيح الذي يتناسب مـع مقاصد الكتاب الكـريم و السنة النبوية الصحيحة . ومنها ما جاء في الحديث من أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . وظهور الجن في صور حيوانات وأشكال مختلفة ، وظهور الملائكة في صور بني آدم ، وإدبار الشياطين عند الأذان ، وحقيقة البرزخ وأهله ، و ماهو

([41])التفتازاني ، شرح العقائد النسفية ، المقدمة ، ص35 .

وجه التوفيق بين ما ورد في الآثار الصحيحة عن الجنِ والشياطين وسائر الغيبيات ، وما يقوله الفلاسفة في هذا الموضوع ([42]) .

ثم قسم موقف العلماء من هذه الأمور إلى خمس فرق ، وفَصَّلَ في موقف كل فرقة . وبعد أن فرغ من ذلك وضع قانونه الذي نصح فيه السائلين وغيرهم بالالتزام به ، ولخص هذا القانون على شكل وصايا هي :

1 ـ أن لا يطمع في الاطلاع على جميع ذلك لقوله تعالى : { وما أوتيتم من العلم إلا قليلا }([43]) . أي أن أكثر هذه الأمور من الغيبيات قد اختص الله سبحانه وتعالى بعلمها ، وعلى المؤمن أن يقف فيها عند الحد الذي وصل إلينا منها في القرآن الكريم والحديث الصحيح .

2 ـ أن لا يُكَـذّب برهان العقل أصلا ، فإن العقل لا يكذب ، ولو كذب العقل فلعله كذب في إثبات الشرع .

3 ـ أن يكف عن تعيين التأويل عند تعارض الاحتمالات فإن الحكم على مراد الله سبحانه ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم بالظن والتخمين خطر ([44]) .

ومن خلال هذه الوصايا يبدو الغزالي الأشعري الذي يرى التصديق بالغيبيات كما وردت دون الخوض في التأويلات البعيدة ، مع المحافظة ـ في الوقت ذاته ـ على مكانة العقل في تقرير العقائد والاحتجاج لها .

([42]) أبو سليمان ، د . عبد الوهاب إبراهيم . كتابة البحث العلمي ، ص288 .
([43]) الإسراء ، 85 .
([44])أبو سليمان . المرجع السابق ، ص289 .

11 ـ قواعد العقائد :

لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505 هـ)

بدأ الغزالي كتابه بفصل في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام . وفيه فَصَّلَ معنى الكلمة الأولى وهي شهادة أن لا إله إلا الله واحد لا شريك له ، واستخلص منها المعاني التالية :

ـ التتريه : وهو أن الله ليس بجسم مصور ، لا يماثل الأجسام ولا يحده المقدار ، وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله ، و بالمعنى الذي أراده استواءً مترها عن المماسة والاستقرار .

ـ الحياة والـــقدر أي أنه تعالى حي قادر ، جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ، منفرد بالخلق والاختراع ، لا يشذ عن قبضته مقدور ولا يَعْزُبُ عن قدرته تصاريف الأمور

ـ الغلم : وهو أنه عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجري من تخوم الأرضين إلى أعلى السماوات ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

ـ الإرادة : وهو أنه تعالى مريد للكائنات ، مدبّرُ للحادثات فلا يجري في الملك والملكوت قليل أو كثير إلا بقضائه وقدره وحكمته و مشيئته ، فما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن .

ـ السمع و البصر : و هو أنه تعالى سميع بصير، يسمع و يرى لا يعزب عن سمعه مسموع و إن خفي ، و لا يغيب عن رؤيته المرئي و إن دق ، ولا يحجب سمعه بُعْدُ ، و لا يدفع رؤيته ظلام .

ـ الكلام : و هو تعالى متكلم ، آمر ، ناه ، واعد متوعد بكلام أزلي قديم قائم بذاته ، لا يشبه كلام الخلق

ــ الأفعال : هو أنه سبحانه و تعالى لا موجود سواه إلا و هو حادث بفعله ، و فائض من عدله على أحسن الوجوه و أكملها ، حكيم في أفعاله ، عادل في أقضيته ، متفضل بالخلق و الاختراع و التكليف لا عن وجوب ، و مُتَطَوِّلٌ بالإنعام و الإصلاح لا عن لزوم ، يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم و الوعد ، لا بحكم الاستحقاق و اللزوم له .

ثم انتقل إلى معنى الكلمة الثانية ، و هي الشهادة للمرسل بالرسالة : << و أشهد أن محمدا عبده و رسوله >> و قد استخلص منها ما يلي :

ــ أن الله تعالى بعث النبي الأمي القرشي محمد (ص) برسالته إلى كافة العرب و العجم و الجن و الإنس فنسخ بشريعته الشرائع ، و فضله على سائر الأنبياء و جعله سيد البشر ، و قرن الشهادة له بالألوهية والوحدانية بالشهادة لنبيه بالنبوة و الرسالة .

ــ أنه لا يتقبل إيمان العبد حتى يؤمن بما أخبربه النبي عليه الصلاة و السلام بعـــد الموت : كسؤال منكر و نكير ، و عذاب القبر ، و الميزان ، و الصراط ، و الحوض المورود ، و الحساب .

ــ و أن يؤمن بإخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى في جهـــنّم موحد .

ــ و أن يؤمن بشفاعة الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء ، ثم سائر المؤمنين على حسب جاهـــــه و مترلته .

ــ أن يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم و ترتيـــبهم ، و أن أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه و سلم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي . و أن يحسن الظن بجميع الصحابة و يثني عليهم كما أثنى الله عز و جل و رسوله

صلى الله عليه و سلم عليهم أجمعين : << فمن اعتقد جميع ذلك موقنا به كان من أهل الحق و عصابة السنة و فارق رهط الضلال و حزب البدعة >>([45])

ــ أما الفصل الثاني فقد رسم فيه المنهج الذي يجب أن يتبعه المرشد أو المعلم ليقدم قواعد العقائد للصبي : و هي أن يبدأه بالحفظ ، ثم الفهم ، ثم الاعتقاد و الإيقان و التصديق به ، و أن يحرس على سمعه من الجدل و الكلام لأنه يفتنه و يفسده ([46]) : فإن كان ممن اشتغل بأمور الدنيا فإن العقيدة الحقه التي أخذها في صباه ستنجيه في الآخرة لأنه من طائفة أهل الحق ، و إذا سلك طريق الآخرة ولازم التقوى ، و اشتغل بالرياضة و المجاهدة انفتحت له أبواب الهداية و تكشفت له حقائق هذه العقيدة بنور الهي يُقْذّفُ في قلبه ([47]).

ثم عقد فصلا أورد فيه أقوال العلماء في علم الكلام ، و بدأ بالرأي الأول و هو الذي يقول إن علم الكلام بدعة ، و أثبت تحته آراء أئمة المذاهب الأربعة ، ثم انتقل إلى من يقولون إنه ليس ببدعة ، و بسط أدلتهم التي تدافع عن شرعية علم الكلام ، و ذكر بعض الصحابة الذين جادلوا في الحق و لأجل الحق .

وخلص إلى الموازنة بين الرأيين قائلا : إن إطلاق القول بذمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ بل لابد فيه من تفصيل لأن : << فيه منفعة وفيه مضرة ، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه ، أو واجب كما يقتضيه الحال .وهو من اعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام >>([48]) مفصلا في ذلك ، و موضحا وجوه فساده وصلاحه ، وما يجب

([45]) الغزالي ، قواعد العقائد ، ص 38
([46]) المصدر نفسه ، ص41 .
([47]) المصدر نفسه ، ص 43
([48]) المصدر نفسه ، ص54 .

على المسلم تعلمه منه ، ومتى ، وكيف ؟ حتى ينجو من مـــساوئه : << وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر ، إذ لايضعه إلا في موضعه وذلك في وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة >> ([49]) .

وهو يرى أن تحصيل اليقين وإزالة الشبه والشكوك ، ومعرفة الأشياء على ما هي عليه وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة لا يتم إلا بالمجاهدة << وقمع الشهوات والإقبال بالكلية على الله تعالى، وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجـــادلات >>([50]) .

ثم أزال الغموض عن قضية الظاهر والباطن في العلوم الشرعية ، ونفي أن يكون هناك تناقص بين الشريعة والحقيقة .

أما الفصل الثالث فقد خصصه لسوق البراهين الواضحة والحجج الدامغة على صحة العقائد التي سبق وأن أوجزها عند حديثه عن معنى الشهادتين . وتتضمن أربعة أركان يقوم عليها بناء الإيمان : الركن الأول في معرفة ذات الله تعالى ، والركن الثاني في صفاته ، والركن الثالث في أفعاله ، والركن الرابع في السمعيات ، وكل ركن مداره على عشرة أصول ،.وأسهب في تفصيل هذه الأركان وأصولها على مذهب المتكلمين .

والفصل الرابع جعل الحديث فيه عن الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال ، وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه . وعالج هذا الموضوع من خلال ثلاث مسائل : الأولى اختلاف المتكلمين في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره ، و إن كان غيره فهل هو منفصل

([49])الغزالي ، قواعد العقائد ، ص 56 .

([50]) المصدر نفسه ، ص 62 .

عنه يوجد دونه أو مرتبطا به يلازمه ؟ . والثانية : اتفاق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص بالمعصية ، فإذا كان التصديق هو نفسه الإيمان فكيف تتصور فيه الزيادة و النقصان ؟ . والثالثة : ما هو تأويل الاستثناء في قول السلف رضوان الله عليهم : أنا مؤمن إن شاء الله ؟ والاستثناء شك ، والشك في الإيمان كفر ، وقد كانوا يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحترزون عنه . وبعد أن فصل في هذه المسائل ختم الكتاب .

أعدّه للطبع رؤوف شلبي وموسى محمد علي وصدر عن مجمع البحوث الإسلامية عام 1390 هـ ـ 1970 م ، ونشرته دار النصر للطباعة بالقاهرة

12 ـ لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة :

لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني (ت 478 هـ)

هذا الكتاب عبارة عن رسالة صغيرة في العقيدة الأشعرية . هدف مؤلفها إلى عرض حقيقة مذهب أهل السنة والجماعة في الاعتقاد ، من خلال طرح المسائل التي يثور الخلاف فيها بين علماء الكلام والمعتزلة مدعما لها بالأدلة الموجزة والبراهين العقلية المقتضبة ([51]) .

وقد ضمن الجويني كتابه الكلام عن العالم وحدوثه للوصول إلى وجود الله تعالى وقدمه . ثم تحدث عن الله وصفاته ، وتوسع قليلا في صفة الكلام ، وبعدها عرض لقضية الرسل والنبوة والمعجزات ، وختمه بفصل عن الإمامة و الخلافة ([52]) .

([51]) الزحيلي ، د. محمد . مرجع العلوم الإسلامية . ص354 .
([52]) المرجع نفسه ، ص354 .

شرحه عبد الله بن محمد الفهري الشهير بابن التلمساني (ت 644 ه)
كما شرحه أيضا فخر الدين الرازي في كتابه " المعالم " ([53]) .

قامت الباحثة فوقية حسين محمود بتحقيقه و التعليق عليه ، وطبع بالقاهرة عام 1385 هـ ـ 1965 م . وله أيضا كتاب " العقيدة النظامية " الذي قام بتحقيقه الشيخ زاهد الكوثري وطبع بمطبعة الأنوار بمصر عام 1948 م .

13 ـ كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع :

لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت 330 هـ)

ينتمي هذا الكتاب إلى كتب العقائد التي تعالج الموضوعات الكلامية على طريقة الأشاعرة . وهو يمثل مرحلة متطورة من مراحل تفكير الأشعري حيث زالت موجة العداء الجارف للمعتزلة ، وخفت حدة الاعتماد التام على النص ، وبدا فيه متحررا قليلا من النقل ومتجها نحو العقل : << فتوسع في ذكر الموضوعات التي لم يتعرض لها في الإبانة ، واتضح منهجه في الأخذ بالعقل والنقل >>([54]) .

وقد لاحظ أحمد صبحي هذا التطور الذي طرأ على تفكير الأشعري من خلال كتاب " اللمع " فقال : << أما آراؤه في اللمع فقد جاءت أقرب إلى القصد وأبعد عن التحامل وأكثر نضجا ، ومن ثم أدق تعبيرا عن حقيقة مذهبه ، فلا تحكمها انفعالات العداوة البادية عقب التحول ، ومن ثم فهي أجدر من آرائه في الإبانة في التعبير عن حقيقة آرائه >>([55]) .

([53])الزحيلي ، د. محمد . مرجع العلوم الإسلامية ، ص355 .
([54]) المغربي ، علي عبد الفتاح ، الفرق الكلامية الإسلامية ، ص281 .
([55]) صبحي ، د. أحمد محمود ، في علم الكلام ، ج2 ، ص57

وعليه ، فالدارسون يعدونه من أهم كتب الأشعري في العقائد ، لما يحتوي عليه من اهتمام بالغ بالأدلة العقلية ، والإسهاب في إثباتها . وقد انتهج في عرض موضوعاته طريقة السؤال والجواب .

والكتاب مقسم إلى عدة أبواب ، كل باب يحتوي على مسائل ، ومن ضمن المواضيع التي عرض لها : الله وصفاته ، الكلام في القرآن والإرادة ، الكلام في الإرادة وأنها تعم سائر المحدثات ، والكلام في رؤية الله ، وفي القدر والاستطاعة ، والتعديل والتجوير ، وفي الإيمان ، وفي الخاص والعام ، وفي الوعد والوعيد ، كما تعرض لقضية الإمامة

توجد نسخة مخطوطة منه في المتحف البريطاني تحت رقم 172 ضمن المخطوطات الشرقية،وأخرى في الكلية الأمريكية ببيروت ([56]). ترجمه الأب ريتشارد مكارثي اليسوعي (R.J.MC CARTHY) إلى الإنجليزية ، ونشره في بيروت عام 1903 م ، كما نشره حموده غرابة بالقاهرة عام 1955 م ([57])

14 ــ لوامع الأسرار في شرح مطالع الأنوار : لقطب الدين محمد بن محمد الرازي (ت766 هـ)

وهو عبارة عن شرح لكتاب " مطالع الأنوار " الذي ألّفه القاضي سراج الدين محمود بن أبي بكر الأرموي (ت 689 هـ) .

وقد رتب المؤلف هذا الشرح على طرفين : خصص الطرف الأوّل لفن المنطق ، وقسّم الطرف الثاني إلى أربعة أقسام : القسم الأول في الأمور العامة ، والثاني في الجوهر ، والثالث في الأعراض ، والرابع في العلم الإلهي خاصة ([58])

([56]) سزكين ، فؤاد ، تاريخ التراث العربي ، ج2 ، ص376 .
([57]) صبحي ، د. أحمد محمود ، في علم الكلام ، ج2 ، ص56 .
([58]) أبو سليمان ، د. عبد الوهاب إبراهيم . كتابة البحث العلمي . ص322 .

وبـــيَّن في مقدمة الكتاب أنه لم يكتف بشرح ما ورد في كتاب " مطالع الأنوار " فحسب ، بل اجتهد في بيان قواعد فن المنطق ومقاصد علماء الكلام ، كما وضح وجهة نظره الخاصة في المواضيع التي طرحها الكتاب المشروح وذلك من خلال توجيه النقد لبعض النظريات التي رأى أنها لا تتفق مع قناعاته العلمية وترجيح أولويتها بين القبول والرفض معضدا كل ذلك بالدليل الواضح وفي ذلك يقول : << ولم أقتصر على حل تركيبه، والإفصاح عن نكت أساليبه بل حققت أيضا قواعد الفن وبينت مقاصد القوم، وبالغت في نقد الكلام ،وإيراد ماسنح لي من الرد والقبول، والنقض والإبرام نعم ، فقد أخرجت من بحر الفكر فرايد الجواهر،ونظمتها في سمط العبارات الزواهر . . . >> [59] .

15 ـ مـــفاتيح الغيب :

لمحمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي(ت 606 هـــ)

وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها ، وأوسعها وأغزرها مادة ، نحافيه صاحبه نحوا كلاميا فلسفيا لتفسير آيات القرآن الكريم ، قاصدا بذلك الانتصار لمذهب أهل السنة والجماعـــــة . ومؤلفه هو محمد بن عمر فخر الدين الرازي أوحد زمانه في المنقول والمعقول ، شيخ الإسلام وفريد عصره في علم الكلام وإمام المفسّرين .

ويرسم لنا هذا التفسير صورة صادقة للحالة الثقافية التي كانت سائدة في عصر الفخر الرازي ، حيث تألقت المدرسة الأشعرية ، وضعف سلطان المعتزلة [60] ، وبقيت الفلسفة اليونانية تقاوم هجمات المتكلمين والمتصوفة على

---

(59) أبو سليمان ، د. عبد الوهاب إبراهيم . كتابة البحث العلمي. ص 322

(60) الصباغ ، محمد . لمحات في علوم القرآن . ص198 .

يد الفلاسفة المسلمين الذين اجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد لتقريب مقولاتها من أصول ومبادئ الشريعة الإسلامية

وقد حاول المؤلف من خلاله أن ينتزع علم التفسير من طائفتين احتكرتا هذا العلم وهما : طائفة المحدثين ، وطائفة الأدباء المعنيين بالبلاغة ليتيح الفرصة لعلماء التوحيد وعلم الكلام ليدلوا بدلوهم في هذا الميدان ([61]) .

وبناء عليه ، فقد حفل تفسير الرازي بكم كبير من النظريات الرياضية والطبيعية والفلكية وغيرها من العلوم التي انتشرت في عهده ولقيت إقبالا من العلماء ، والتي استغلها لتفسير الآيات الكريمة وبيان موافقة ما ورد في النصوص المعصومة لما توصلت إليه العقول بالتجربة والبرهان .

كما تضمن أيضا عرضا لكثير من أقوال الفلاسفة ثم ردّ عليها وفندها مستعملا في ذلك السلاح نفسه الذي يستخدمه الفلاسفة في مباحث الإلهيات وهو الاستدلال العقلي المنطقي ، غير أنّه كان حريصا على أن لا يتجاوز بذلك ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة في هذا الباب ([62]) .

أما صلة هذا التفسير بعلم الكلام فتبدو واضحة فيما أورده الرازي من مسائل كلامية على مذهب المعتزلة حيث لم يكن يدع فرصة تمرّ دون أن يُعَرّضَ بمذهبهم ويرد عليهم منـــتصرا لمذهب أهل السنة .

غير أن كثيرا من علماء السنة أخذوا عليه ضعفه في مجال الدفاع عن مذهبه ، وعدم توفيقه في دحض حجج المعتزلة وتوهين براهينهم ، وهم يرون أنه قد نجح إلى حد بعيد في بيان الأدلة التي يقوم عليها مذهب الاعتزال ، واستنفذ قوته في توضيحها وجلائها : << حتى لو أراد صاحبها أن يزيد عليها شيئا عجز

([61])الصباغ ، محمد . لمحات في علوم القرآن ، ص 201 .
([62]) الذهبي ، د. محمد حسين . التفسير والمفسرون . ج1 . ص294 .

وخارت قواه >> ([63]) فإذا ما تصدى للردّ بدا الوهن غالبا على ردوده ، وعجز عن أن يأتيَ بأدلة تضاهي في قوتها تلك التي دعّم بها مقولات خصومه .

وهو ما أشار إليه سراج الدين السرمياحي المغربي في قوله : << يورد شبه المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق ، ثم يورد مذهب أهل السنة والحق على غاية من الوهاء >>([64])، وقد ألف كتابا في مجلدين ضمنه المآخذ التي انتقد فيها فخر الدين الرازي في تفسيره ([65]) .

ويبرر ابن حجر هذه الظاهرة عند الرازي ــ بعد أن يعترف بقيمة تفسيره الكبيرة ــ بقوله : << ولعل سببه أنه كان يستفرغ أقوالا في تقرير دليل الخصم ، فإذا انتهى إلى تقرير دليل نفسه لا يبقى عنده شيء من القوى ولا شك أن القوى النفسانية تابعة للقوى البدنية >> ([66]) .

ومهما يكن من أمر فإن تفسير الرازي قد جمع بين دفتيه ثروة كلامية كبيرة أشار إليها صاحب كشف الظنون في قوله :<< إن الإمام فخر الدين الرازي ملأ تفسيره بأقوال الحكمـــاء والفلاسفة ،وخرج من شيء إلى شيء حتى يقضي الناظر العجب >>([67]) ، مما حدا بالذهبي إلى اعتباره : << أشبه ما يكون بموسوعة في علم الكلام ، وفي علوم الكون والطبيعة ،إذ أن هذه الناحية هي التي غلبت عليه حتى كادت تقلل من أهمية الكتاب كتفسير للقرآن الكريم >> ([68]) في إشارة إلى ما قرره أبو حيان في " البحر المحيط " من أن

([63]) أمين ، د. بكري شيخ ، التعبير الفني في القرآن . ص115 .
([64]) ابن حجر ، لسان الميزان ، ج4 ، ص427 .
([65]) المصدر نفسه ، ج4 ، ص427 .
([66]) المصدر نفسه . ج 4 . ص 427
([67]) خليفة، حاجي . كشف الظنون . ج1 .ص 230 – 231
([68]) الذهبي ،د.محمد حسين . التفسير والمفسرون . ج1 – ص295

الإمام الرازي جمع : << في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير ،ولذلك قال بعض العلماء : فيه كل شيء إلا التفسير >> ([69]) .

وعلى الرغم من هذه المبالغة في وصف تفسير الرازي إلى أنه ظل على مر العصور يتمتع بمكانة متميزة لدى العلماء .وهو يحتوي بالإضافة إلى ما أسلفنا ذكره على مذاهب الفقهاء في آيات الأحكام مع ترجيح المذهب الشافعي بالأدلة والبراهين ،وعلى المسائل الأصولية ،والمسائل النحوية والبلاغية ،وعلى استطرادات واستنباطات كثيرة جدا تتعلق بالفوائد والمعاني التي يمكن استيحاؤها من اللفظ القرآني ،وقد أشار إلى وجود هذه الظاهرة في تفسيره حين قال في المقدمة :<< إعلم أنه مــر على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة – يقصد الفاتحة – يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة فاستبعد هذا بعض الحساد، وقوم من أهل الجهل والغي والعناد ،وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني ،و الكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمباني ،فلما شرعت في تصنيف الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصيــر كالتنبيه عــلى أن مــا ذكــر ناه أمر ممكن الحصول ، قريب الوصول >> ([70]).

طبع تفسير مفاتيح الغيب كاملا في اثنيــن وثلاثيــن جزءا عدة مرات بعنوان " التفسير الكبير " ،منها طبعة المطبعة البهية بمصر ،والتي صورتها دار الكتب العلمية بطهران .وقام محمد محي الدين عبد الحميد بتحقيقه ونشره عام 1352 هـــ ([71]).

([69]) خليفة ، حاجي .كشف الظنون .ج 1. ص 231
([70]) الرازي ، فخر الدين .مفاتيح الغيب – ج1 –ص 2 . 3
([71]) الزحيــلي ، د.محمد . مرجع العلوم الإسلامية . ص 212

16 ـ المقاصد في علم الكلام :

لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت 792 هـ)

سماه صاحبه في مقدمة الكتاب " مقاصد الطالبين في علم أصول الدين " وقد أتمه في سمر قند عام 784 هـ ورتبه على ستة مقاصد ، وهو من أهم مصادر علم الكلام وصفه المولى خضر بك بقوله :

شرح المقاصد ما في الفن مسألة   من المسائل إلا وهو حاويها

فن الكلام كبحر و هو لجتــه   يا أيها البحر لا تحصى لآليها ([72])

عكف كثير من العلماء على شرحــه ،كما وضعت عليه حواش عديدة منها حاشية علي القاري ، وحاشية إلياس بن ابراهيم السينابي قال صاحب كشف الظنون : " وهي حاشية لطيفة جدا " ([73]) . وحاشية مصلح الدين المعروف بحسام زاده .كما اختصره الشيخ محمد بن محمد الدجي وسماه مقاصد المقاصد ([74]) .

توجد منه نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني وأخرى في إنديــا أوفيس تحت رقم 461 - 4 . كما توجد نسخة لشرح المقاصد في المكتبة الظاهرية تحت رقم ع 35 ، وأخرى تحت رقم عام 4800 .طبع عام 1277 هـ ([75])

17 ـ مواقف في علم الكلام :

لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الأيجي(ت 756 هـ)

يمثل هذا الكتاب المرحلة الأخيرة التي وصل إليها علم الكلام وهي مرحلة علم الكلام الفلسفي ، حيث أصبحت الفلسفة جزءا صميما في الفكر

([72]) التفتازاني ، ، شرح العقائد النسفيــة . تقديم كلود سلامة .ص 32

([73]) خليفة ، حاجي . كشف الظنون . ج2 . ص 630

([74]) المرجع نفسه. ص 630

([75]) التفتازاني ، شرح العقائد النسفية تقديم : كلود سلامة . ص 33.32

العقائدي . كما يعد حصيلة تراث الاشاعرة ،و هو يضارع عندهم ما بلغه كتاب المغني للقاضي عبد الجبار بالنسبة للمعتزلة لأنه يمثل الذروة التي انتهت إليها الصياغة الأشعرية لعلم الكلام ([76]).

و الكتاب يتميز بنسق متكامل شامل في عرض موضوعات علم الكـــــلام ،و ترتيب محكم :<<لم يتمكن أشعري من بعده أن يزيد عليه فضلا عن أن يجاريه >> ([77]) ، كما غلبت عليه الموضوعات الفلسفية و المنطق التي أصبحت سمة علم الكلام لدى متأخري الأشاعرة.

استهله الأيجي بقوله : << ... هذا و إن أرفع العلوم و أعلاها ،و أنفعها و أجداها ...علم الكلام المتكفل بإثبات الصانع و توحيده ،و تتريهه عن مشابهة الأجسام ...و إثبات النبوة التي هي أساس الإسلام ،و عليه مبنى الشرائع و الأحكام ...و إني قد طالعت ما وقع إلي من الكتب المصنفة في هذا الفن ،فلم أر فيها ما فيه شفاء لعليل ،أو رواء لغليل ...فحداني الحدب على أهل الطلب و من له في تحقيق الحق أرب ،إلى أن كتبت هذا كتابا مقتصدا لا مطولا مملا ، و لا مختصرا مخلا ،أودعته لب الألباب ،و ميزت فيه القشر من اللباب ،و لم آل جهدا في تحرير المطالب ،و تقرير المذاهب ،و تركت الحجج تتبختر اتضاحا و الشبه تتضاءل افتضاحا ،و نبهت في النقد و التزييف و الهدم و الترصيف على نكت هي ينابيع التحقيق ،و فقر تهدي إلى مظان التدقيق ،وأنا أنظر من الموارد إلى المصادر وأتأمل في المخارج قبـــل آن أضـــع قدمي في المداخل ...حتى جاء كما أردت ،ووفق الله وسدد في اتمام ما قصدت >>([78])

([76]) صبحي ،د.أحمد محمود.في علم الكلام .ج2.ص358.357

([77]) المرجع نفسه ، ص358

([78]) الأيجي ،عضد الدين عبد الرحمان .المواقف في علم الكلام.ص5.4

و الكتاب ينقسم إلى ستة مواقف،و كل مـــوقف إلى عدة مراصد ، وكل مرصد إلى عدة مقاصد ،و يتناول بالدراسة ستة موضوعات هي :المقدمات المسائل العامة ،الأعراض ، الجوهر ، الإلهيات و السمعيات .

تعرض المؤلف في المقدمات إلى تعريف علم الكلام ،ثم تحدث عن موضوعه و فائدته و مكانته بين العلوم ،و أهم مسائله .و انتقل بعدها إلى النظر مؤكدا ضرورته للعلم ،و فرق هنا بين النظر الصحيح و الفاسد و انتهى بعرض أنواع الاستدلال و أقسامه.

أما في المسائل العامة فقد تناول مسائل الوجود و العدم ،و موضوع الوجوب و الإمكان و الامتناع ،و مسألة الوحدة و الكثرة ،ثم العلة و المعلول

وفي موقف الأعراض شرح مفهوم العرض لدى كلّ من المتكلمين والفلاسفة وقدم شرحا لكلّ منهما .

و في الموقف الرابع عالج مسألة الجوهـــر و أقسامـــه ،و حقيقة الجسم و نظرية الجزء ،و مذهب الفلاسفة في الهيولي و الصورة ،و خاض في مسائل متصلة بالعلم الطبيعي و الجغرافيا و الفلك ،و غلب على هذه الموضوعات الأخيرة الطابع الفلسفي أكثر من الطابع العلمي .

و في الموقف الخامس عرض للإلهيات حيث طرح الأدلة التي تثبت وجود الله ،و تـــحدث كذلك عن ذاته تعالى و صفاته و أفعاله و شمول إرادته و تناول موضوع الحسن و القبح الشرعيين ،و في أن أفعاله عز و جل لا تعلل.

أما الموقف السادس و الأخير و المخصص للسمعيات ،فقد عرض فيه للنبوة و حقيقتها ،و حقيقة المعجزة ،و عصمة الأنبياء ،و في تفضيلهم على الملائكة ،كما تحدث عن المعاد مشيرا إلى إمكان إعادة المعدوم و حشر الأجساد

و عن الجنة و النار ،و عــذاب الــقبر و الصراط و الميزان ،و الحوض المورود و عرج بعد ذلك إلى قضية الأسماء و الأحكام ،و حقيقة الإيمان .

و ختم الأيجي كتابه بفصل عن الإمامة ، تناول فيه وجوب نصب الإمام و شروط الإمامة ،و ذيل ذلك بذكر فرق المسلمين و فقا لحديث افتراق الأمة إلى ثلاث و سبعين فرقة ذكر منهم المعتزلة الذين انقسموا إلى عشرين فرقة ، والشيعة الذين انقسموا إلى اثنتين و عشرين فرقة ،و الخوارج الذين انقسموا إلى سبع فرق و المرجئــة إلى خمس فــرق ، و النجارية إلى ثلاث فــرق ،ثم الجبرية و المشبهة ، و جعل الأشاعرة و السلف من المحدثين و أهل السنة و الجماعة هم الفرقة الناجية .

و نظرا للمكانة الخاصة التي حظي بها كتاب المواقف ،فقد أقبل عليه العلماء يشرحونه و يعلقون على موضوعاته ، و بذلك اجتمعت له جملة من الشروح و الحواشي لم يحظ بها مصنف لمتكلم أشعري قبله([79]) . و من بين هذه الشروح نذكر : شرح السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني ،و شرح شمس الدين محمد بن يوسف الكرماني ، و شرح سيف الدين الأبهري ، و شرح المولى علاء الدين علي الطوسي ، و شرح المولى حيدر الهروي ([80]) .

و لعل شرح الشريف الجرجاني أحسنها إفادة ، و أشهرها و أدقها ([81]) لذلك فقد نال اهتمام من جاء بعده من العلماء فعكفوا على وضع حواش كثيرة عليه تجاوزت 24 حاشية منها :حاشية للمولى حسن جلبي بن محمد شاه الفناري و حاشية للقاضي شمس الدين محمد بن أحمد البساطي ،و حاشية لمحي الدين محمد

([79]) صبحي ،د.أحمد محمود .في علم الكلام .ص358

([80]) الأيجــي ،عضــد الدين عبد الرحمان . المواقف ، نشرة ابراهيم الدسوقي عطية و أحمد محمد الجنبولي.ص22.

([81]) صبحي. د.أحمد محمود .في علم الكلام.ص357.

بن الخطيب ،و حاشية لفتح الله الشرواني ،و حاشية لحسن بن عبد الصمد السمسوني ([82]) و غيرها .

و قد طبع كتاب المواقف طبعات كثيرة ، و أكثر طبعاته انتشارا هي الطبعة المرفقة بشرح الشريف الجرجاني (ت 16 8هـ) و المذيلة بحاشيتي عبد الحكيم السيالكوتي و المولى حسن جلبي بن محمد شاه الفناري و الصادرة عن مطبعة السعادة عام 1325هـ-1907م في ثمانية أجزاء تقع في أربعة مجلدات([83]) .

18 ـ الانتصار والردّ على ابن الراوندي :

لأبي الحسين عبد الرحيم بن محمد الخياط(ت 300) .

كان هذا الكتاب حتى الخمسينيات من هذا القرن هو الأثر الوحيد بين يدي الباحثين من تراث المعتزلة الذي ضاع بعد زوال نفوذهم ، وتصاعد العداء الشعبي والرسمي ضدّهم .

وقبل ظهور هذا الكتاب ، كان المتكلمون من خصوم المعتزلة ينقلون آراءهم من كتاب ابن الراوندي الذي كان معتزليا ثم خرج عليهم وتشيّع ثم ألحد ، وألّف كتاب " فضيحة المعتزلة " بعد أن ألف الجاحظ " فضيلة المعتزلة " وقد ملأ كتابه بالطعـن على المعتزلة والثلب فيهم ، فشوه آراءهم ومسخ أقوالهم . لذلك ظلت الصورة القاتمة عن المعتزلة تصاحب أذهان المثقفين والباحثين إلى أن ظهر هذا الكتاب الذي أراد أبو الحسين الخياط من خلاله أن يدافع عن معتقدات المعتزلة و آرائهم [9] .

([82]) الأيجي ،. المواقف ، نشره إبراهيم الدسوقي و أحمد محمد الجنبولي .ص23.22

([83]) صبحي .د.أحمد محمود .في علم الكلام .ص 357

[9] المرجع نفسه ، ج1 ، ص 270 .

وقد انتهج فيه طريقة ذكر العبارات الممسوخة عن ابن الراوندي ثم يتبعها بالعبارات الصحيحة ، مبينا العقيدة الاعتزالية على حقيقتها ، وموضحا أسسها الفكرية وطرقها في الاستدلال والاحتجاج . وبهذه الطريقة تتبع أقوال ابن الروواندي عبارة ، مما سمح للدارسين بالوقوف على آراء المعتزلة بجلاء ووضوح ، وأدّى ذلك ــ في المقابل ــ إلى تراجع قيمة آراء البغدادي و غيره من الأشاعرة الذين كانوا المصدر الوحيد للمذهب الاعتزالي [10] مع ما يشوب أقوالهم من انتقاص وانتقاد وتحريف .

كما كشف هذا الكتاب أيضا عن الجهود المحمودة التي بذلها المعتزلة في الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضدّ المذاهب والديانات الأخرى [11] التي قويت شوكتها في عهدهم ، ونشط أصحابها في مهاجمة الإسلام وإثارة الشكوك والشبهات حوله .

توجـــد نسخة مخطوطة منه بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم : توحيد 852 ، حققه المستشرق السويدي نينبرج ونشره بالقاهرة عام 1925 ، كما نشر ببيروت عام 1957.

19 ــ تنزيه القرآن عن المطاعن :

للقاضي عبد الجبارالأسد أبادي المعتزلي (ت41 5 هــ)

يعد هذا الكتاب نموذجا لتفسير القرآن الكريم وفقا للمذهب الاعتزالي الذي كـــان القـــاضي عبد الجبار أحد أقطابه و << آخر علماء المعتزلة الناهين >> [13] .

---

[10] صبحي ، د. أحمد محمود . علم الكلام ، ج1 ، ص270 .
[11] المرجع نفسه ، ج1 ، ص 270 .
[13] سزكين ، فؤاد . تاريخ التراث العربي ، ج2 ، ص411 .

ذكر المؤلف في المقدمة أنه لن يتمكن من الانتفاع من كتاب الله إلا إذا وقف على معاني ما فيه ، وفصل بين محكمه ومتشابهه . وقد ذكر أن كثيرا من الناس قد ضلوا في فهم متشابه القرآن ، لذلك فقد اجتهد في بيانه ، وأوضح وجه الخطأ عند فريق من الناس الذين رأى أنهم جانبوا الصواب في تأويله [14] .

وبناءً على هذه المقدمة ، فإن القاضي عبد الجبار لم يفسر القرآن الكريم كله آية آية ، بل كان يفصل بين الآيات المحكمة والمتشابهة ، ثم يتناول ما تشابه منها بـالتفسير ، مدعّما بالحجج والأدلة العقلية والقياسات المنطقية مقولات المذهب الاعتزالي ، مخطّـئًا ــ في المقابل ــ الفريق الذي أوّلها حسب ظاهرها : << وهو يقصد بهذا الفريق ــ في الغالب ــ جماعة أهل السنّة الذين لا يرون رأيه في القرآن ، ولا ينظرون إليه نظرته الاعتزالية >> [15] .

وغالبا ما كان يركز في تفسيره على الآيات التي يرى أنها حجّة لغير المعتزلة ، يستعينون بها ليهدموا أصلا من أصول الاعتزال ، أو يفنّدوا رأيا من آرائه ، فيؤولها لتوافق مذهبه ، وهذا ما دعا أحد الدارسين إلى القول بأنه كان الأولى بالقاضي عبد الجبار أن يسمّي كتابه " تنزيه رأي المعتزلة في القرآن عن مطاعن خصومهم " [16] ، وليس " تنزيه القرآن عن المطاعن " .

وقد بدا في هذا الكتاب قويّ الحجّة ، واضح الأسلوب ، متمكّنا من ناصية اللغة ، حاضر البديهة ، يكثر من استعمال المنطق في كلّ ما يكتب عن عقائد المعتزلة [17] ، ولا غرو فقد كان : << وعاء من أوعية العلم >> . شهد

---

[14] القاضي عبد الجبار . تنزيه القرآن عن المطاعن . المقدمة . ص3 ــ 4 .
[15] الذهبي ، محمد . التفسير والمفسرون . ج1 . ص 391 .
[16] آل جعفـر ، د. مسـاعد مسلم عبد الله . أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي . ص 335
[17] المرجع نفسه . ص333 .

له المتقدمون والمتأخرون بذلك . ومن الأمثلة التي دافع فيها القاضي عبد الجبار عن مذهبه من خلال تأويل الآيات القرآنية نذكر :

1 ــ رؤية الله : لا يُجوّز المعتزلة وقوع رؤية الله في الآخرة مبالغة منهم في تتريه الخالق ونفي التجسيم عنه . لذلك فقد اختار القاضي عبد الجبار الآيات التي يدل ظاهرها على جواز رؤية المؤمنين لله في الآخرة. وأثبت صحة مذهبه . ومثال ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى : { وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربّها ناظرة } [18] ، حيث قال : << ربما قيل في قوله تعالى : { وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة } إنه أقوى دليل على أن الله تعالى يُرَى في الآخرة . وجوابنا : أن من تعلّق بذلك إن كان ممن يقول بأن الله تعالى جسم ، فإننا لا ننازعه في أنّه يُرَى ، بل في أنه يُصَافَح ، و يُعَانَقْ ، و يُلَمَس تعالى الله عن ذلك . وإنما نكلمه في أنه ليس بجسم . وإن كان ممن ينفي التشبيه عن الله فلا بد من أن يعترف بأن النظر إلى الله تعالى لا يصحّ إلاّ في الأجسام . فيجب أن يُــتَــأَوّل على ما يصحّ النظر إليه وهو الثواب >> [19] .

2 ــ المترلة بين المترلتين : يعتقد المعتزلة أن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن ولا هو كافر ، وعليه فهو في المترلة بين المترلتين ، ويبدو ودفاع القاضي عبد الجبار عن هذه الفكرة التي تعد أحد أصول العقيدة الاعتزالية الخمسة في تفسيره لقوله تعالى : { إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوهم وإذا تليت عليهم آياته زادهم إيمانا وعلى رهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا } [20] حيث يقول : << وكلّ ذلك يدل على أن الإيمان قول وعمل ويدخل فيه كل هذه الطاعات ، وأن المؤمن لا

---

[18] القيامة ، 22 ــ 23 .

[19] القاضي عبد الجبار . تنزيه القرآن عن المطاعن . ص358 ــ 359 .

[20] الأنفال ، 2 ــ 3 ــ 4 .

يكون مؤمنا إلا أن يقوم بحق العبادات ، ومتى وقعت منه كبيرة خرج عن أن يكون مؤمنا >>[21] .

3 ــ أفعال العباد : يرى المعتزلة أن الله لا يخلق أفعال العباد ، بل إن الإنسان حرّ في أن يأتي ما يشاء من الأفعال خيرا كانت أم شرا ، معصية كانت أم طاعة . وفي سبيل تدعيم هذه العقيدة يذهب القاضي عبد الجبار إلى تأويل كثير من الآيات القرآنية التي تنسب الأفعال إلى الله ، ومنها قوله تعالى : { فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى }[22] ، والتي يقول معلقا عليها : << كيف يصح ذلك مع القــول بأن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد ؟ وجوابنا : أنه صلى الله عليه وسلم كان يرمي يوم بدر ، والله تعالى بلغ رميته المقاتل ، لذلك أضافه تعالى إلى نفسه كما أضاف الرمية أولا إليه بقوله : << إذ رميت والكلام متفق بحمد الله >>[23] .

وهكذا يسير الكتاب على هذه الطريقة الانتقائية ليبدو في النهاية معرضا للدفاع عن العقيدة الاعتزاليــة : << فلا يكاد يمرّ بآية تعارض مذهــبه إلا صرفــها عن ظاهرها ومال بها إلى ناحية مذهبه >> [24] وإن كان ذلك لا يطــعن في قيمة الكتاب العلمية و البلاغية وهو ما أشار إليه محمد الذهبي في قوله : << وعلى الجملة فالكتاب ــ رغم ما فيه من هذه النزعات الاعتزالية ــ قد كشف لنا عن كثير من الشبهـــات التي ترد على ظاهر النظم الكريم ،

---

[21] القاضي عبد الجبار . تنزيه القرآن عن المطاعن . ص143 .
[22] الأنفال ، 17 .
[23] القاضي عبد الجبار ، مرجع سابق، ص144 .
[24] الذهبي ، محمد حسين . التفسير والمفسرون . ج1 . ص401 .

وأوضح لنا عن كثير من جمال التركيب القرآني الذي ينطوي على البلاغة والإعجاز ، مما يشهد لمؤلفه بقوة وغزارة العلم >> [25] .

تـوجد نسخة مخطوطة منه بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم : تفسير 330 ، طبع بالقاهرة عام 1326 هـ . ومرة ثانية عام 1329 هـ بالمطبعة الجمالية [26] . كما أشرفت دار النهضة الحديثة ببيروت على طبعه دون تاريخ

20 ـ شرح الأصول الخمسة :

للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ت 415 هـ)

هذا الكتاب من أشهر كتب القاضي عبد الجبار ، وأعظمها أثرا ، وأشيعها ذكرا ، وهو الكتاب المعتزلي الوحيد الذي يقدم مذهب الاعتزال بشكل شمولي منسق ومتكامل . وقد ظلّ الاعتزال قبل ظهور هذا الكتاب لا يُلْـتَمَسُ إلا من النصوص المنسوبة إليه ، والمبثوثة في كتب خصومه من أشاعرة وغيرهم . لذلك يعدّ اكتشاف هذا الكتاب ونشره خطوة إيجابية وحاسمة للتعرف على الاعتزال بطريقة موضوعية ، بالرجوع إلى مصادرة الذاتية [30] .

يمثل الكتاب مرحلة متقدمة من مراحل تطور علم الكلام ، فقد اجتمع للقاضي عبد الجبار اطلاع واسع على شتى المذاهب التي كان يزخر بها عصره ، كما أتاحت له حياته المديدة المليئة بالمناقشات والمحاورات والمناظرات فرصة ثمينة جعلته قادرا على تقديم صورة حيّة وصادقة عن الحالة التي انتهى إليها علم الكلام في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين [31] .

---

[25] الذهبي ، محمد حسين . التفسير والمفسرون ، ج1 . ص 401 .

[26] سزكين ، فؤاد . تاريخ التراث العربي ، ج2 . ص411 .

[30] القاضي عبد الجبار ، شرح الأصول الخمسة . تقديم : د. عبد الكريم عثمان . ص30 .

[31] المصدر نفسه ، ص32 .

وهو يتضمن أغلب المسائل الاعتقاديـــة التي كانت مثار نقاش بين علماء الكلام في عصره من معتزلة و أشعرية وكرامية ومجبرة وغيرهم . وقد اتسم منهج القاضي عبد الجبار بالأمانة التامة في نقل آراء خصومه ، حيث كان يثبتها بكل دقة ووضوح ، ثم يردّ عليها في هدوء و رويّة متجنبا الإساءة إلـــى الخصم بالكلمات النابية أو الشتائم الجارحة [32] .

ويتميز أسلوب الكتاب بالوضوح والسهولة ــ على عكس كتاب المغني الذي تبدو عبارتـــه صعبة لا يسلس قيادها للكثيرين ــ لأن القاضي عبد الجبار كان يلقي مادته على شكل دروس يحضرها الخاصة والعامة،فأراد أن يبسّطها ليسهل فهمها وانتشارها [33]

يبدأ الكتاب بمقدمة عن النظر ووجوبه على المكلف كونه من الطرق المؤدية إلى معرفة الله ، ثم ينتقل إلى البحث عما يجب على المكلّف معرفته من أصول الدين وبعد ذلك يعرض للأصول الخمسة التي يقوم عليها مذهب الاعتزال وهي : التوحيد والعدل ، والوعد والوعيد ، والمترلة بين المترلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عرضا سريعا ، ثم يفصل ما أجمل من أصول ويختم الكتاب بفصل في التوبة . حققه الدكتور عبد الكريم عثمان ، ونشره في القاهرة عام 1965 .

---

(32) القاضي عبد الجبار ، شرح الأصول الخمسة ، ص32 .

(33) المصدر نفسه ، ص33 .

21 ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :
لأبي القاسم محمود الخوارزمي الزمخشري (ت 538هـ)

يعد تفسير الكشاف من أجل ما ألف في ميدان التفسير ، فقد سما به صاحبه إلى أعلى مقـــام ، وبلغ مبلغا عظيما من التوفيق لأنه يمثل قمة مجده العلمي ، إذ أودعه الزمخشري خلاصة علمه ولبّ معارفه .

وهو ــ إلى جانب ذلك ــ تفسير المعتزلة ومعتمدهم ، والزمخشري من متأخري المعتزلة الثقاة المخلصين في عقيدهم . و كان لا يتحرج من المجاهرة بانتمائه للاعتزال على الرغم من كره الناس والسلطان في زمنه لهذا التيار . فكان : << إذا قصد صاحــبًا له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن : قل له : أبو القاسم المعتزلي بالباب.>>[52] . لذلك نجد أن : << أثر الاعتزال واضح في كل ما يكتب ، وكل ما يفسر . فإن النظرة العقلية البحته لتفسير النص ديدنه ، ومنهج الاعتزال سبيله ، فيعلل ويؤوّل ما وسعه ، ولا يعجزه التأويل لأنه من أرباب البيان >>[53] .

ومما أضفى قيمة خاصة على الكتاب أنه هو الكتاب الوحيد من تفاسير المعتزلة الذي وصل إلينا متناولا للقرآن الكريم كله ، ومتضمنا لكل الأفكار الاعتزالية المتصلة بكتاب الله .

كما أن صاحبه كان : << آخر مفسري المعتزلة الأعلام الذين جاد بهم الزمن >> [54] ، وقد ظهر في وقت ضاعت فيه معظم تفاسير المعتزلة القيمة ، بعد أن فقدوا نفوذهم العلمي والسياسي واستشرى عداء الناس لهم

---

[52] ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج2 ، ص510 .
[53] آل جعفر ، د. مساعد مسلم عبدالله ، أثر التطور الفكري في التفسير ، ص336 .
[54] الجويني ، د. مصطفى الصاوي . منهج الزمخشري في تفسير القرآن ، ص271 .

ويمثل الكشاف القمة العالية في التفسير بالرأي ، وقد أجمع العلماء في القديم والحديث على تـفرّده وشموخه ، وعلى براعة صاحبه وحسن صناعته التي أكسبت التفسير شهرة واسعة ، جعلت كل من جاء بعده من المفسرين يستمد من بحره الزاخر ، ويرتشف من معينه الفياض[55] .

قرّظه الشيخ حيدر الهروي بقوله : << إن كتاب الكشاف كتاب عَلِيُّ القدرِ رفيع الشأن ، لم يُرَ مثله في تصانيف الأولين ، ولم يَرِد شبيهه في تآليف الآخرين . اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمةُ الـمَهَرَةِ المتقِنينَ ، واجتمعت على محاسن أساليبه الأنيقة ألسنة الكلمة المفـلّقين >> [56] .

وقال عنه تاج الدين السبكي : << واعلم أن الكشاف كتاب عظيم في بابه ، ومصنفه إمام في فنه إلا أنـه رجـل مبتـدع متجـاهر ببـدعته ، يضع من قدر النبوة كثيرا ، ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة >> [57] ، إشارة إلى ما فيه من دفاع عن مذهب المعتزلة في الاعتقاد .

وعلى الرغم مما ميز الكشاف من ارتباط واضح بالعقيدة الاعتزالية إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يكتسح كتب التفسير ، ويلقى الحظوة والترحيب من الأصدقاء والخصوم على السواء الذين اعترفوا أنه لا يمكن الاستغناء عنه كمصدر أساسي في التفسير .

وقد أبدى الزمخشري قدرة علمية وبيانية عالية جدا في الانتصار لمذهبه الاعتزالي : << فقد كانت شخصيته الاعتزالية واضحة بينة تطالعنا في التفسير كما تطالعنا في البحث الجمالي لآي القرآن . وهذه الناحية ـــ و إن عدَّت من سيئات الزمخشري عند قوم ـــ فهي من الوجهة العلمية الخالصة تنم عن أصالة

---

[55] الذهبي ، د. محمد حسين ، التفسير والمفسرون ، ج1 ، ص 441 .
[56] خليفة ، حاجي . كشف الظنون ، ج2 ، ص409 .
[57] السبكي ، تاج الدين . معيد النعم ومبيد النقم . ص114 ـــ 115 .

ورسوخ قدم في البحث الكلامي ، فقد عرف الزمخشري كيف يسخّر أدواته الثقافية في خدمة رأيه الاعتزالي سواء في فهمه للقرآن أو في تذوقه لجماله >>[58] .

وأظهر ما يبدو في تفسيره إيمانه بالعقل وتقديسه له كغيره من أقطاب المعتزلة ، وهو يعد العقل قبل السمع (أي الوحي) والسمع منبه للعقل من غفلته ، كما يراه سابقا للشريعة والسنة والإجماع والقياس .

وهو في تفسيره للقرآن لا يقنع بظاهر المعنى القرآني الذي لا يعد شيئا بجانب تدبره واستبطان معانيه وفي ذلك يقول : << وتدبر الآيات التفكر فيها ، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل وكان مثله كمثل من له لقحة دَرُور لا يحلبها ومهرة نَثُور لا يستولدها >> [59] .

ومن الأمثلة الكثيرة التي حاول فيها الزمخشري أن يؤوّل الآيات الكريمة لتوافق مقولات المذهب المعتزلي نذكر :

ـــ أنه يستعمل بكثرة طريقة الفروض المجازية ، ويحمل الكلام الذي يبدو غريبا في ظاهره على أنه من قبل التعبيرات التمثيلية أو التخييلية [60] ، ولا يقبل المعاني الظاهرة التي يجوزها أهل السنة الذين ما انفك يندد بقبولهم لها كما جاءت ، وينسبهم ـــ من أجل ذلك ـــ إلى أهل الأوهام والخرافات [61]

---

[58] الجويني ، د. مصطفى الصاوي . منهج الزمخشري في تفسير القرآن ، ص300 .
[59] الزمخشري ، الكشاف ، ج2 ، ص283 .
[60] الذهبي ، محمد حسين ، التفسير والمفسرون ، ج1 ، ص449 .
[61] الزمخشري ، الكشاف ، ج1 ، ص302 .

ومنها تفسيره لقوله تعالى : { وسع كرسيه السماوات والأرض }(62) وبما أن المعتزلة يرفضون التجسيم ، وينفون الصفات مبالغة منهم في تتريه الذات الإلهية ، فإن الزمخشري ذهب في تفسيره هذه الآية إلى أن كلمة الكرسي تحتمل في تفسيرها أربعة أوجه : << الوجه الأول منها : أن كرسيّه لم يضق عن السماوات والأرض لبسطته وسعته ، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط ، ولا كرسي ثمة ولا قعود ، ولا قاعد ، كقوله : { وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه }(63) من غير تصور قبضة وطيّ ويمين ، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه ، وتمثيل حسن ، ألا ترى إلى قوله : { وما قدروا الله حق قدره }(64)

ونحا المنحى نفسه في قوله تعالى : { لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون }(65) حيث قال في تفسيرها : << هنا تمثيل وتخـــيل . . . وقد دل عليه قوله : << و تلك الأمثال نضربها للناس >> والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره >>(66)

وقد أثارت هذه الطريقة كثيرا من مفسري أهل السنة الذين انتقدوه فيها انتقادا عنيفا ، ومنهم أحمد بن محمد المنير المالكي الإسكندري الذي وضع حاشية على الكشاف سماها " الانتصاف " عاب عليه فيها انسياقه وراء مذهبه المعتزلي ، ومن ذلك قوله معقبا على تفسير الآية السابقة : << وهذا مما تقدم

---

(62) البقرة ، 255 .
(63) الزمر ، 67 .
(64) الزمخشري ، الكشاف ، ج1 ، ص278 ـ 279 .
(65) الحشر ، 21 .
(66) الزمخشري ، الكشاف ، ج2 ، ص449 .

إنكاري عليه فيه ، أفلا كان يتأدب بأدب الآية ، حيث سمى الله هذا مثلا ولم يقل : تلك الخيالات نضربها للناس ؟ ألهمنا الله حسن الأدب معه >> [67] .

ومن آثار الفكر المعتزلي في الكشاف أيضا أن الزمخشري يلجأ إلى الآيات المتشابهة فيجعلها في مرتبة المحكم ، وإلى الآيات المحكمة فيجعلها في مرتبة المتشابه ، ثم يحمل الثانية على الأولى : << ليرضى هواه المذهبي وعقيدته الاعتزالية >> [68] . ومن ذلك أنه عدّ قوله تعالى : { لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار }[69] ، آية محكمة ، وعد قوله تعالى : { وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة } [70] آية متشابهة ، لأن الأولى توافق مذهب المعتزلة في تتريه الله عن التجسيم ، وتوحي باستحالة رؤيته عز وجل ، وعجز الأبصار البشرية عن إدراكه ، والثانية يوحي ظاهرها بإمكان رؤية المؤمنين لله سبحانه يوم القيامة ، فوجب حمل الثانية على الأولى لتكون وجهة النظر الاعتزالية هي الأصل .

22 ــ المجموع المحيط بالتكليف :
للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ت 415 هــ)

يعد هذا الكتاب أيضا أحد مصادر الفكر المعتزلي التي تم العثور عليها في العصر الحديث ، وقد جمع مادته وهذبه ونقحه أبو محمد الحسن بن أحمد بن متويه الذي عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، وكان تلميذا للقاضي عبد الجبار [78] ، وأحد علماء المعتزلة المتأخرين .

---

[67] ابن المنير الاسكندري ، هامش الكشاف . ج2 . ص449 .
[68] الذهبي ، محمد حسين . التفسير والمفسرون ، ج1 ، ص455 .
[69] الأنعام ، 103 .
[70] القيامة ، 22 ــ 23 .
[78] الذهبي ، محمد حسين . التفسير والمفسرون ، ج2 ، ص416 .

تناول الكتاب جملة من القضايا الكلامية المتداولة بين المتكلمين كالتوحيد والصفات والعدل والأفعال والإرادة والقرآن وغيرها .

قسم الجزء الأول من الكتاب إلى تسعة أسفار ، كلّ سفّر يحتوي على جملة من الأبواب والفصول ، عالج في السفر الأول التكليف والتوحيد ، وفي السفر الثاني ما ما يجب تعلمه من صفات المعاني ، وفي السفر الثالث الكلام في الصفات ، وفي السفر الرابع في أنه تعالى يصحّ أن يريد ويكره ، وفي السفر الخامس في أنه تعالى لا يجوز أن يعلم لنفسه وبعلم محدث ، كما تناول فيه أيضا الكـــلام في التوحيد والعدل والأفعال . وفي السفر السادس فيما له بحسن الحسن ، وفي السفر السابع فيما يريده القديم من فعله وفعل غيره . وتضمن أيضا الكلام في القرآن وسائر كلام الله ، أما السفر الثامن فخصصه لذكر الشبهات التي ألصقها الخصوم بالمعتزلة مع الردّ عليها وختمه بالسفر التاسع الذي أفرده للحديث عن التوليد [79] .

توجد نسخة مخطوطة منه في برلين تحت رقم 5149 ، و نسخة أخرى بالمكتبة التيمورية بالقاهرة تحت رقم عقائد 357 ، و عدة نسخ بصنعاء باليمن تحت أرقام : كلام 203 ، 204 ، 206 [80] .

عُنِـــيَ بتصحيح الجزء الأول منه ونشره بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت الأب جين يوسف هو بن اليسوعي عام 1965 . كما نشره سيد عزمي بالقاهرة عام 1965 أيضا [81] .

---

[79] أبو سليمان ، د. عبد الوهاب إبراهيم . كتابة البحث العلمي . ص300 .
[80] سزكين ، فؤاد . تاريخ التراث العربي . ج2 ، ص411 .
[81] المرجع نفسه ، ج2 . ص411 .

23 ـ المغني في أبواب العدل والتوحيد :

للقاضي عبد الجبار المعتزلي (ت 415 هـ)

هذا الكتاب عبارة عن موسوعة علمية كبيرة في علم الكلام بعامة ، وعقائد المعتزلة بخاصة [82] . وهو عمدة أهل الاعتزال في علم الكلام . ويتألف من عشرين مجلدا ، لم يصل إلينا منها سوى 14 مجلدا . طبع في السنوات الأخيرة في ثمانية أجزاء . ولا تزال ستة أجزاء منه مفقودة إلى الآن وهي الأول والثاني والثالث والعاشر والثامن عشر والتاسع عشر .

وقد ساهم اكتشاف هذا الكتاب في خزائن المخطوطات باليمن في إحداث تغيير شامل في معلومات الدارسين عن المعتزلة بعد أن شوهها ومسخها خصومهم على مدى قرون .

ويمثل القاضي عبد الجبار الحلقة الأخيرة من الاعتزال الخالص ، ويعدّ كتاب المغني : << أدق و أوفى مصدر عن فكر المعتزلة وآراء رجالهم >>[83] . قدم له محققاه بقولهما : << من خصائص كتاب المغني في علم الكلام عند المعتزلة اعتماده على المنطق و على القياس البرهاني اعتمادا قويا ، فكلّ مسائل الكتاب وبحوثه أقيسة منطقية متلاحقة تدرك بالتأمل والملاحظة . ومن أجل هذا يشعـــر القارئ بإرهاق فكره مع سهولة لغة المؤلف واستقامتها من حيث العربية . . . وشيء آخر يزيد في صعوبة فهم الكتاب وهو كثرة ما حوى من المصطلحات الفلسفية التي تواضع عليها أهل تلك العصور في بحثهم ، ورد

---

[82] أبو سليمان ،د . عبد الوهاب إبراهيم ، كتابة البحث العلمي . ص297 .
[83] صبحي ، أحمد محمود . في علم الكلام ، ج1 ، ص337 .

بعضهم على بعض . . . وقد كان القاضي يشرح هذه المصطلحات في أثناء شرح المسائل ليفرق بين معنى الاصطلاح وما يلابسه >> [84] .

وقد عالج القاضي عبد الجبار في كتابه معظم القضايا الكلامية التي كانت مطروحة في عصره من وجهة نظر المذهب الاعتزالي الذي عرف صياغته النهائية على يده :

ـ في الجزء الرابع : تحدث عن رؤية الله ، وبحث الموضوعات التالية : في أن الله لا تجوز عليه الحاجة ، في الرؤية نفسها . في أنه تعالى واحد .

ـ الجزء الخامس : بحث فيه موضوع الفرق وأسماء الله .

ـ الجزء السادس : عالج فيه مسألة التعديل والتجوير والإرادة .

ـ الجزء السابع : بحث في موضوع القرآن .

ـ الجزء الثامن : تحدث عن المخلوق .

ـ الجزء التاسع : تحدث عن التوليد .

ـ الجزء الحادي عشر : تناول موضوعات الآجال ، و الأرزاق ، و الأسعار ، و الرخص و الغلاء ، والتكليف .

ـ الجزء الثاني عشر : في النظر والمعارف .

ـ الجزء الثالث عشر : تحدث فيه عن اللطف والآلام .

ـ الجزء الرابع عشر : تحدث فيه عن الأصلح واستحقاق الذم .

ـ الجزء الخامس عشر : خصصه للنبوات .

---

[84] القاضــي عبد الجبار ، المغني ، تحقيق : د. مصطفى السقا وإبراهيم مدكور ج6 ، ص : ط.ي .

ـ الجزء السادس عشر : عالج فيه قضايا الخبر ، ونسخ الشرائع ، وثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وقد طبع هذا الجزء بعنوان << إعجاز القرآن >>[85] .

ـ الجزء السابع عشر : في أصول الفقه .

ـ الجزء العشرون : في الإمامة .

[85] أبو سليمان ، د. عبد الوهاب إبراهيم . كتابة البحث العلمي . ص299 .

الفصل السادس
موقف القدامى من علم الكلام

لقد أثار علم الكلام ردود فعل مختلفة لدى العلماء المسلمين القدامى ، وانقسموا تجاهه إلى قسمين : فريق رفضه وعارضه ، وعده فتنة في الدين وعامل انقسام للوحدة الإسلامية بل وهاجم المتكلمين وطعن في دينهم . وفريق أيده وانتصر لقضاياه ، وراح يشرح في إسهاب فضائله وحسن بلائه في رد كيد المعتدين من أصحاب الديانات والمذاهب المختلفة .

فأما القسم الذي رفض علم الكلام ، ورأى أن الاشتغال به فيه مضرة بالغة بالدين ، فيمثله الفقهاء وعلماء الحديث ويأتي على رأسهم الأئمة الأربعة : أبو حنيفة ومالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل الذين سعوا إلى تثبيت معالم العقيدة الصحيحة كما جاء بها القرآن وشرحتها السنة .

وقد اضطرهم ذلك لدخول حلقات المتكلمين لينقذوا عامة المسلمين من القلق العقائدي الذي كان يتخطفهم ويمزق عقولهم وقلوبهم [1]. وكان هؤلاء الأئمة على جانب عظيم من العلم والتقوى والتمكن ، ولم يكونوا متكلمين بقدر ما كانوا مدافعين عن العقائد الصحيحة كما جاءت في القرآن وسنحاول فيما يلي استعراض مواقفهم :

أ ـ **أبو حنيفة النعمان** (ت 150 هـ) الذي كان أول من أرسى للمسلمين قواعد الفقه وكتب لهم قانونهم العملي . وقد كان يكره الخوض في مسائل علم الكلام ويتحاشاها قدر الاستطاعة بعد أن جرّ به مدة واعتزله . غير أنه اضطر إلى الإدلاء برأيه فيها اضطرارا ، رغبة منه في إنقاذ

---

[1] النشار ، د. علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ج1 ، ص300

المسلمين من الشكوك التي كانت تغزو قلوبهم تجاه عقيدتهم بفعل التساؤلات التي كان يشيعها المتكلمون بالمجالس ، والتي كانت تسري بين الناس سريان النار في الهشيم .وقد ضمن آراءه الكلامية كتاب « الفقه الأكبر » الذي ألفه لـــنصرة عقائد السنة كما ، ذكر ابن النديم أن له كتابا آخر في الرد على القدرية [2] .

عاصر أبو حنيفة شيخي المعتزلة الأوائل واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد اللذين يقولان بنفي الصفات عن الله تعالى تتريها له عن كل تشبيه ، كما عاصر الجهم بن صفوان رائد الجبرية والقائل بأن الإنسان في كل أحواله و أفعاله مسير لا اختيار له ، وعاصر أيضا مذهب المشبهة الذي كان مقاتل بن سليمان جادا في نشره بخراسان . فتكلم في توحيد الذات والصفات وأثبت لله وحدانيته وصمديته وتفرده وعدم مشابهته لشيء من المخلوقات والموجودات ، كما تكلم في الجبر والاختيار وهما المسألتان الشائكتان اللتان كانتا تشغلان المسلمين في عصره لكن بتحفظ شديد ، لأنه أحس بخطورة المسألة وسوء أثرها في نفوس المسلمين ، وكان يتمنى ألا يقول فيها رأيا ، غير أن القدريين حاصروه وضيقوا عليه السؤال وألحوا عليه في الجدل وهم يطلبون منه تفسيرا معقولا لتساؤلاتهم : كيف يقدر الله الأمور ثم يقضيها ثم يحاسب الناس على ما بدر منهم ؟ وهل يسع أحد من المخلوقين أن يجري في ملك الله مالم يقض به الله ؟[3]

وفي هذا الخضم من الآراء المتضاربة أعلن أبو حنيفة عن رأيه : << خلق الله الخلق خلوا من شائبة الكفر والإيمان ثم أتى الخطاب : الأمر والنهي ، فآمن من آمن وكفر من كفر ، ولم يجبر الله أحدا من خلقه على الكفر ولا على

---

[2] ابن النديم ، الفهرست ، ص299

[3] النشار ، د. علي سامي ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ،ج1 ، ص311 ــ 312

الإيمان ولا خلقه مؤمنا ولا كافرا . والطاعات كلها كانت واجبة بأمر الله تعالى وبمحبته وبرضائه وعلمه ومشيئته وقضائه وتقديره والمعاصي كلها بعلمه وقضائه وتقديره ومشيئته لا بمحبته ولا برضائه ولا بأمره >>[4] وهذا ملخص المذهب الكسبي الذي كان أبو حنيفة أول من وضع أسسه وهو الذي أصبح فيما بعد مذهب أهل السنة والجماعة [5]

وكـــان أبو حنيفة يتكلم في الجبر والاختيار بحذر شديد وعلى قدر الحاجة ، وما فتئ يردد : << هذه مسألة قـــد استصعبت على الناس فأنّى يطيقونها ، هذه مسألة مقفلة قد ضل مفتاحها ، فإن وجد مفتاحها علم ما فيها ، ولم يفتح إلا بمخبر من الله يأتي بما عنده ، ويأتي ببينة وبرهان >>[6] .

كما تكلم أبو حنيفة في الإيمان وعرفه بأنه : << المعرفة والإقرار بالله ورسوله وبما جاء من الله ورسوله بالجملة دون التفصيل ، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ولا يتفاضل الناس فيه >>[7] ، حتى يحمي المسلمين من عقيدة الخوارج التي كانت تنادي بأن الإيمان عقد وعمل ، فمن لم يعمل لم يكن مؤمنا .

وعلى الرغم من مواقفه الكلامية الأصيلة إلا أنه كان يعارض الاشتغال به وقد نهى إبنه حماد نهيا صارما عن مناظرة المتكلمين وجدالهم ، فلما استفسره ابنه قائلا : رأيتك وأنت تتكلم فما بالك تنهاني ؟ قال له : << يا بني كنا نتكلم وكل واحد منا كأن على رأسه الطير مخافة أن يزلّ صاحبه ، وأنتم اليوم

---

(4) القاري ، ملاّ علي ، شرح الفقه الأكبر ، ص 57

(5) النشار ، مرجع سابق ، ج1 ، ص310

(6) القاري، ملاّ علي ، شرح الفقه الأكبر ، ص51

(7) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص351

تتكلمون ... كل واحد يريد أن يزل صاحبه ومن أراد أن يزل صاحبه فكأنه أراد أن يكفر ، ومن أراد أن يكفر صاحبه فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه >>[8]

ومن هذا النص يتبين لنا أن أحد أكبر الأسباب التي جعلت أبو حنيفة يعارض الاشتغال بعلم الكلام هـــو الجدل من أجل الجدل ، والمناظرة من أجل إفحام الخصم وتكفيره ، وهو خروج عن الغاية التي نشأ من أجلها علم الكلام . كما أنه تزعم المدرسة السنية التي تقف عند الحدود التي وقف عندها السلف الصالح في الاعتقاد بعد أن تبين له انحراف علم الكلام عنها وفي ذلك يقول : << كنت أعد الكلام أفضل العلوم ، وكنت أقول هذا الكلام في أصل الدين فراجعت نفسي بعدما مضى لي فيه عمر وتدبرت فقلت إن المتقدمين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين لم يكن يفوتهم شئ مما ندركه نحن وكانوا عليه أقدر وبه أعرف وأعلم بحقائق الأمور ثم لم ينتصبوا فيه منازعين ولا مجادلين . ولم يخوضوا فيه ، بل أمسكوا عن ذلك ونهوا عنه أشد النهي ، ورأيت خوضهم في الشرائع وأبواب الفقه وكلامهم فيه عليه تجالسوا وإليه حضروا ، وكانوا يعلمون الناس ويدعونهم إلى التعلم ويرغبونهم فيه ، ويفتون ويستفتون . وعلى ذلك مضى الصدر الأول من السابقين ، وتبعهم التابعون عليه .فلما ظهر لنا من أمورهم هذا الذي وصفناه ، تركنا المنازعة والمجادلـــة و الخوض في الكلام ، واكتفينا بمعرفته ، ورجعنا إلى ما كان عليه السلف ، وأخذنا فيما كانوا عليه ، وشرعنا فيما شرعوا وجالسنا أهل المعرفة بذلك ، وإني رأيت أن من ينتحل الكلام ويجادل فيه قومه ليس سيماهم سيما المتقدمين ، ولا منهاجهم

---

[8] زاده ، طاش كبرى ، مفتاح السعادة ، ج2 ، ص154

منهاج الصالحين رأيتهم قاسية قلوبهم ، غليظة أفئدهم ، لا يبالون مخالفة الكتاب والسنة والسلف الصالح ، ولم يكن لهم ورع ولا تقوى >>[9] .

ب ــ أما مالك بن أنس (ت 179 هــ) فقد عاصر غُلُوَّ فرقة المشبّهة في تشبيه الله عز وجل بالمخلوقات بتأثير يهودي ، وغُلُوَّ المعتزلة ــ في المقابل ــ في إنكار الصفات ونفيها تتريها لله عن كل تشبيه . وعلى الرغم من أنه منع رواية أحاديث الصفات ، إلا أنه حارب بشدة الخوض في علم الكلام . وكانت فكرة استواء الله على العرش قد شغلت الناس بين مبالغ في التشبيه ومبالغ في النفي ، وعندما سئل عنها قال قوله المشهورة : << الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة >>[10]. وهو بذلك ينكر ما ذهب إليه المشبهة من أن استواء الله على العرش استواء مادي عندما أكد أن << الكيفية مجهولة >> ، ويرد ــ في الوقت نفسه ــ على المعتزلة الذين نفوا أن يكون ثمة استواء أصلا وقرر بذلك أسس العقيدة كما أثرت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ونأى بنفسه عن كل جدال أو مناظرة ، وأعلن أنه لا يتكلم إلا فيما تحته عمل ، أي في الأمور الفقهية التي تتطلب أحكاما عملية . كما أفتى بعدم جواز شهادة أهل البدع والأهواء وقال بعض أصحابه : إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا [11].

وكان يرى أن تقرير العقيدة بواسطة الفرضيات العقلية والجدل ليس وراءها طائل مادامت النتائج التي يتوصل إليها المجادل قابلة للنقض من طرف

---

[9] المكــي ، الهيثمــي ، الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، ص27

[10] البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص126 .

[11] الغزالي ، ابو حامد ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص95

مجادل أمهر منه في اللجاج والمناظرة ، وهذا يُعَرِّضُ إيمان العامة للاهتزاز والتغير الدائم بحيث لا يثبت معه اعتقاد ، وفي ذلــــك يقول فيمن يؤمن اعتمــادا على أدلــة المتكلمين : << أ رأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ >>[12].

ج ــ وكان **الإمام الشافعي** (ت 204 هــ) أيضا من أكبر المعارضين لعلم الكلام لما رأى من أثره السيئ في تفريق كلمة المسلمين ،و إفساد عقيدهم .غير أنه اضطرــ مثــل أبي حنيفة النعمان ــ إلى دخــول معتــركه و الخوض في مسائله ،فقاوم القدرية و ناظر بشر المريسي الذي يقول بالقدر .كما أنكر الجهة التي يقول بها المجسمة و بأن الله موجود في جهة ما من العرش و تكلم في الذات و الصفات مثبتا عقيدة أهل السنة وكان يقول من شدة ورعه و خوفه من الفرقة :<< ما ناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطئ>>.

وقد أثر عنه مواقف وأقوال كثيرة يذم فيها علم الكلام والمشتغلين به ،ومنها أنه قال يوم ناظر حفصا الفرد ــ أحد متكلمي المعتزلة ــ :<< لأن يلقى الله عز و جل العبد بكل ذنب ماخلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشيء مــن علم الكلام ،ولقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن احكيه >> [13] .و كان يحذر الناس من الخوض فيه لأنه يطلق للأهواء الحبل على الغارب ، مما يعرض الإنسان للانزلاق في مهاوي الكفر والإلحاد :<< لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد >> [14] . ولم يتوان عن اتهام

---

[12] الغزالي ، ابو حامد ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص95

[13] المصدر نفسه. ج1.ص95

[14] المصدر نفسه .ج1.ص95

المتكلمين في دينهم والتعريض بإيمانهم فقال : << إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له >>[15]

وبسبب معارضته القوية لعلم الكلام حكم على المتكلمين بأن : << يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام >>[16] .

د ـ وقد حذا الإمام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ) حذوه فاتخذ موقفا شديدا من علم الكلام والمتكلمين ، ونهى عن الخوض في مسائله حتى لو كان الهدف منه نصرة عقيدة أهل السنة . ولم تكن له ثقة في دين المتكلمين فكان كثيرا ما يطعن في صحة عقيدتهم و صدق إيمانهم ومن ذلك قوله << علماء الكلام زنادقة >>وقوله :<< لا يفلح صاحب الكلام أبدا ولا تكاد ترى أحدا نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل >> [17] وقد بلغت به معارضته له إلى درجة أنه هجر الحارث المحاسبي (ت 243 هـ) الذي كان على جانب عظيم من الزهد والورع بسبب تصنيفه كتابا في الرد على المبتدعة و قد لامه على ذلك وعاتبه بقوله:<< ويحك ألست تحكي بدعتهم أولا ثم ترد عليهم ؟ ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث ؟ >>[18]. ومن خلال هذا النص الأخير ندرك أن أحمد بن حنبل كان يعارض علم الكلام لأنه يعتبره من الأسباب التي تفسد على

---

[15] الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص95

[16] المصدر نفسه ، ج1 ، ص95

[17] المصدر نفسه ، ج1، ص95

[18] المصدر نفسه ، ج1 ، ص95

الناس عقيدهم ، وتفتح ثغرة في المجتمع تنفذ منها الشبهات للعامة الذين لا يستطيع كثير منهم أن يقاومها .

وعلى الرغم من أن عصره كان يموج بالتراعات الكلامية والفرق المختلفة إلا أنه ابتعد عن ذلك كله متخذا منه موقفا متشددا : << لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام في شئ من هذا إلا ما كان في كتاب أو سنة أو حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود >>[19].

وبناء عليه فقد كان رأيه في المسائل الاعتقادية التي كان يتنازع فيها المتكلمون يستند إلى النص القرآني الذي قام الدليل القاطع على أنه من عند الله وإلى كلام الرسول الذي قام الدليل القاطـــــع على أنه ينطق عن الله ، فعرف الإيمان بأنه : << قول وعمل يزيد وينقص : زيادته إذا أحسنت ونقصانه إذا أسأت ، ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام فإن تاب رجع إلى الإيمان ولا يخرجه من الإسلام إلا الشرك بالله العظيم ، أو يرد فريضة من الفرائض جاحدا لها ، فإن تركها تهاونا بها وكسلا كان في مشيئة الله ، إن شاء عذّبه وإن شاء عفا عنه >>[20] .

أما مرتكب الكبيرة الذي اختلف فيه المتكلمون فقد : << أرجأ ما غاب عنه من الأمور إلى الله وفوّض أمره إليه ،ولم يقطع بالذنوب العصمة من عند الله وعلم ، أن كل شئ بقضاء الله وقدره الخير والشر جميعا ، ورجا لمحسن أمة محمد وتخوف على مسيئهم ، ولم يترل أحدا من أمة محمد الجنة بالإحسان

---

[19] أبو زهرة ، محمد ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج2 ، ص320

[20] المرجع نفسه ، ج2 ، ص318

ولا النار بذنب اكتسبه حتى يكون الله الذي يترل خلقه حيث يشاء >>[21]
وهو بذلك لا يكفر صاحب الكبيرة وإنما يـــعده مسيـــئا و يرجئ أمره إلى الله و يرد على الذين يكفرونه بقوله : << فمن كان منهم كذلك فقد زعم أن آدم كافر وأن اخوة يوسف حين كذبوا أباهم كفار >>[22]

وفي مسألة القدر وأفعال الإنسان هل هي مسيرة أم مخيّرة يقرر أحمد بن حنبل ما يقرره السلف ويكفّ عما كفّ عنه السلف ولا يخوض في أمر عقلي لم يخوضوا فيه ولا يجادل ولا يماري ويتلخّص رأيه في هذه المسألة فـــي قـــوله : << أجمع سبعون رجلا من التابعين وأئمة المسلمين وفقهاء الأمصار على أن السنة التي توفي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم الرضى بقضاء الله ، والتسليم لأمره والصبر تحت حكمه ، والأخذ بما أمر الله به ، والبعد عما نهى عنه والإيمـــان بالقـــدر خيره وشره ، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين >>[23] .

وبذلك التزم أحمد بن حنبل في الأمور الاعتقادية بالمنقول ، و لم يستخدم ما أنتجته العقول لأنه يؤمن أن عقل الإنسان عاجز عن إدراك ما وراء المشاهد المحسوس ، قاصر عن ولوج عالم الغيب الذي كفانا الله سبحانه وتعالى مؤونة البحث فيه ، وأمرنا بالاكتفاء بالقدر الذي بينه في كتابه وحديث نبيه .

وعلى الرغم من حرصه على الابتعاد عن الخوض في علم الكلام ، وذمه له في مناسبات كثيرة ، وتشدده في منع الناس من الاشتغال به إلا أنه قد تعرض لمحنة قاسية جدا كان موضوعها ((خلق القرآن)) وهي مسألة كلامية

---

[21] أبو زهرة ، محمد ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج2 ، ص319

[22] المرجع نفسه ، ج2 ، ص319

[23] المرجع نفسه ، ج2 ، ص320 .

بحتة طرحها المعتزلة وأقنعوا بصحتها الخلفاء العباسيين الثلاثة : المأمون والمعتصم والواثق الذين اعتنقوها وحملوا الناس على الإيمان بها . ولم يقفوا عند ذلك بل تجاوزوه الى امتحان الفقهاء و المحدثين لإرغامهم على القول بقولهم .

وكان أحمد بن حنبل إمام زمانه في الحديث فطالته المحنة ، وتعرض للعذاب الأليم والسجن والاضطهاد والتنكيل لحمله على القول بخلق القرآن ، لكنه ثبت على رأيه ثبوت الجبال ، وتحمل العذاب بصبر عجيب ، ووقفت الأمة كلها مــن ورائه تسانده وتشد أزره : << ولو غير ابن حنبل لغيرت الأمة جمعاء >>[24] ، ولم تلن قناته للأهوال في سبيل نصرة عقيدة أهل السنة والجماعة . وقد ناقشه المعتصم وأحمد بن أبي داوود كاتب الخليفة وأحد شيوخ المعتزلة ، وضيقوا عليه الخناق وهو مكبل بالقيود ، مثخن بالجراح فلم يسمعوا منه سوى جواب واحد : << القرآن كلام الله وليس مخلوقا >> وامتنع عن الخوض في هذه المسألة لأن السلف الصالح لم يخوضوا فيها ، وهو يرى أن مالم يخض فيه السلف من أمور الدين كله يعد ابتداعا يجب الإعراض عنه .

وقد انتصرت فكرة أحمد بن حنبل لموافقتها مصادر الوحي ، وانقرضت فكرة المعتزلة لاعتمادها على مقدمات عقلية واستنباطات فلسفية لا قبلَ للعامة بها ، ولاستنادها إلى القوة والبطش والإرهاب التي تميت الأفكار ولا تنشرها . وتروي كتب التاريخ أن الناس جميعا كانوا مع أحمد بن حنبل في محنته ساخطين على هذا الوضع ، كما كانوا يتندّرون بفكرة خلق القرآن ويستهزئون بقائليها ، وقد عبر عن ذلك أحد المهرجين الذين يحضرون مجلس الواثق حيث دخل عليه في أحد الأيام وقال له : << يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن . قال الواثق : ويلك ... القرآن يموت! ! ؟ . قال : يا أمير المؤمنين كل

---

[24] السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج5 ، ص217 .

مخلوق يموت . يا أمير المؤمنين بم يصلي الناس التراويح؟فضحك الواثق وقال:قتلك الله ... أمسك >>[25]

و تابع الأئمة الأربعة في هذا الموقف كثير من العلماء الذين جاؤوا بعدهم ، لعل أشهرهم **تقي الدين بن تيمية** (ت **728** هــ) الذي عاش في فترة كان علم الكلام قد استكمل مراحل تطوره ، وتحددت مصطلحاته المختلفة بدقة ، وتشكلت مدارسه العديدة ، وأصبح مرجع أهل النظر في العقائد ، فعني بدراسته دراسة شاملة مستفيضة مكنتــه من تحديد موقفه منه وصياغة نقده له على أسس علمية . وقد توصل ــ من خلال ذلك ــ إلى أن جميع الفرق الكلامية ــ بما في ذلك الأشعرية التي رفعت لواء عقيدة أهل السنة والجماعة ــ قد ابتعدوا عن الحق ، لأن بعضهم كالمعتزلة قد رجحوا جانب العقل وغلوا في تقديره فإذا تعارض العقل والنص أوجبوا تقديم العقل و تحكيمه في مسائل العقيدة ، فإذا كانت النصوص ثابتة بحيث لا يمكن ردها جعلوها مــن المتشابه و إلا بادروا إلى إنكارها [26] . وبعضهم الآخر لجأوا إلى التأويل في الصفات الخبرية كالأشاعرة وإن كانوا في نظره خير من سائر الفرق الأخرى لموافقتهم السلف في كثــير من المسائل و تعظيمهم الحديث والسنة ومذهب الجماعة .

أما منهج الفلاسفة في دراســة الإلهيات فإنه ير فضه تماما لأنهــم : << أبعد الناس عن معرفة الأمور الإلهية ،وأن أكثر كلامهم فيها خبط و تخليط لأنهم لم يستضيئوا بنور النبوة ولا كانت عندهم شريعة ،فلذلك كان كلامهم في هذه الشؤون مع كثرة ما فيه من الخطأ في غاية الندرة والقلة >>[27] ، لذلك

---

[25] أبو زهرة ، محمد ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج2 ، ص298

[26] هراس ، محمد خليل ، ابن تيمية السلفي ، ص39

[27] ابن تيمية ، مجموعة الرسائل الكبرى ، ج1 ، ص186

جاءت آراء المتكلمين الذين استخدموا الطرق الفلسفية ـــ اقتداء بفلاسفة اليونان ـــ بعيدة عن الحق ، لأنهم خلطوا الوحي الصادق الذي أخذوه من الدين بالباطل الذي تعلموه من الأصول الفلسفية الفاسدة ، وكانت محاولتهم التوفيق بين الدين والفلسفة فاشلة لأنها جاءت على حساب الدين[28].

وقد ضمّن آراءه في علم الكلام مجموعة من المؤلفات منها " بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول " و " نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان " و " منهاج السنة " و " مجموعة الرسائل الكبرى " وغيرها.

ونحا تلميذه ابن القيم (ت 751 هـــ) نحوه في معارضة الاشتغال بعلم الكلام وذم أصحابه والتهوين ن شأن قواعده وأقيسته والطعن في عقيدة المتكلمين فقال : << أهل الكلام أكثر الناس تناقضا واضطرابا ، فإنهم ينفون الشيء ويثبتون ملزومه ، ويثبتون الشيء وينفون لازمه فتتناقض أقوالهم وأدلتهم ويقع السالك خلفهم في الحيرة والشك ، ولهذا يكون نهاية أكثرهم الشك والحيرة >>[29] . كما انتقد بعنف علم المنطق واتهمه بإفساد العقيدة : << وما كان من هوى النفوس بهذه المنزلة فهو بأن يكون جهلا أولى منه بأن يكون علما ... وما دخل المنطق على علم إلا أفسده وغَيَّرَ أوضاعه وشوش قواعده >>[30]

وكذلك فعل ابن الوزير اليمني (ت 840 هـــ) الذي وجه نقده إلى المتكلمين وأدلتهم بشكل خاص ، وعاب عليهم الاعتماد في إثبات العقائد على المقدمات الفلسفية التي كثيرا ما يتطرق الشك إلى صحتها ، ويختلف عليها كثير من العلماء ، فيرى فيها كل واحد عيبا يطعن في قدرتها على إقامة الحجة في مجال

---

[28] ابن تيمية ، منهاج السنة ، ج1 ، ص96

[29] ابن القيم ، طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص 300

[30] ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ، ج2 ، ص81

العقائد ، فكان ما تفرع عن هذه المقدمات نتائج توازيها في ضعفها وتهافتها : << فعلى قد ما في تلك القواعد من الشكوك والاحتمالات نعرف ضعف ما تفرع عنها >> [31] .كما انتقد اتجاههم إلى البحث في الغيبيات التي لا يملكون دليلا سمعيا عليها ، مستعملين في ذلك ما توصل إليه العقـــــل القاصر ، فضلوا ولم يجدوا منها مخرجا سليما : << فبحثوا أمورا لا يوصل البحث عنها إلى اليقين ولا إلى الوفاق ، وهي مع ذلك لم تُظْهِرْ للخوض فيها ــ مع طوله ــ ثمرة نافعة ، لا باليقين صادقة ، ولا للافتــراق جامعــة ، ولا روي عن أحد من الأنبياء عليهم السلام ولا صح عن أحد من السلف الكرام >> [32] .

وأخذ عليهم إهمالهم لكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، اللذان يعلمانهم الحــق ويضعان في أيديهم الميزان الذي يزنون به المواقف والآراء : << أنزل الكتاب لتعريف الحق الديني ، والميزان لتعريف الحق الدنيوي ، فترك الأكثرون الاعتماد عليه ... وتعرضوا لما لا يمكن من إيضاح المحارات التي لا تتضح ، والسير في الطريق التي لا توصل ، والوزن بالموازين التي لم يترلها الله تعالى ولا علمتها رسله ، ولا اجتمعت عليها عقول العقلاء ... ومن خرج عن ذلك كله فمن أين له الوضوح حتى يمكن أن يكون له ميزان يميز له الحق من الباطل عند الدقة والخفاء والاختلاف الشديد ؟ >> [33]

واتهمهم ــ أخيرا ــ بالسعي إلى تفريق المسلمين وتشتيت صفوفهم بما اتسم به منهجهم من التعصيب للرأي وتكفير المخالف ، والازدراء بمن يبنون إيمانهم ويقينهم على التسليم بما جاء في كتاب الله والإعراض عن طرائق

---

(31) ابن الوزير ، إيثار الحق على الخلق ، ص11 .

(32) المصدر نفسه ، ص4 ــ 5 .

(33) ابن الوزير ، ترجيح أساليب القرآن على أساليب المبتدعة واليونان ، ص8 .

المتكلمين ، مما أفسد النفوس ، وزرع الشكوك في قلوب العامة : << فإن أوائل أهل علم الكلام لابدّ أن يقصروا ــ كما هو العادة الدائمة في كلّ من ابتدأ ما لم يسبق إليه ، فلما كفروا المخالف كتم بعضهم المخالفة ، وتكلف بعضهم الموافقة بالتأويل البعيد وفسد الأكثرون >> [34] .

وهو ــ في موقفه هذا ــ لا يبالغ في خصومة المتكلمين ، ولا يغلو في رفض علم الكلام كلّه جملة وتفصيلا ، وإنما يرفض منه مناهج الاستدلال القائمة على القياس المنطقي والبرهان العقلي . ويحبذ أن يقترب المتكلمون أكثر فأكثر من القرآن الكريم ليستأنسوا بما فيه من البراهين الواضحة ، والحجج الجلية التي ظهر أثرها بينا على جيل الصحابة رضوان الله عليهم ــ ومن اقتدى بهم من التابعين ، وهو يعبر عن هذا الرأي بقوله : << ليس القصد بهذا الكلام إنكار صحة علم الكلام ، فإن فيه ما يعلم صحته بالضرورة ، وإنما فيه إنكار اعتماد الأنبياء ومن عاصرهم من المؤمنين على أدلة الكلام ... وبيان أن الذي كان عليه يكفي المسلم >> [35] .

وقد عاش ابن الوزير اليمني في عصر كانت صياغة علم الكلام قد اكتملت فيه منذ أكثر من قرنين ، بعد أن بلغ تمامه على أيدي كبار المتكلمين . وأكثر ما ميزه اختلاطه الشديد بالفلسفة اليونانية التي صارت جزءا صميما منه ، وهو إذ يعترف لهذا العلم بفضله في مواجهة الفرق الضالة والعقائد المنحرفة في أطوار ازدهاره ونموه ، إلا أنه يفضل أن يتخلص من جميع ما علق به من فلسفات دخيلة ومصطلحات غريبة ، لأنه لم يعد يتوجه إلى المنكرين والملحدين ، وإنما صار في ذلك العصر موجه بشكل خاص إلى المسلمين يعلمهم

---

(34) ابن الوزير ، إيثار الحق على الخلق ، ص15 .

(35) ابن الوزير ، البرهان القاطع في إثبات الصانع ، ص56 .

أصول دينهم وكيفية الاستدلال عليها ، ومن هنا جاء إيثاره لمنهج القرآن في صياغة العقيدة كونه أقرب إلى النفس الإنسانية من القواعد الكلامية الجافة والمقولات الفلسفية الجامدة

وقد استند المعارضون لعلم الكلام على أدلة عضدوا بها صحة موقفهم من علم الكلام ، وسبب معارضتهم له ومنها :

1 ـ اعتقادهم الجازم أن في الكتاب والسنة الغنى عن كل مصدر آخر لمعرفة الله عز وجل و إثبات توحيده وصفاته وأسمائه ، لأن الله سبحانه أكد في محكم تنزيله أنه قد نزل الكتاب وفيه تبيان لكل شئ ، وقد بلغه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه أكمل تبليغ : {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا }[36] يقول السيوطي : << ومعلوم أن أمر التوحيد و إثبات الصانع لا تزال الحاجة ماسة إليه أبدا في كل وقت ومكان ولو أُخرَ عن البيان لكان لكل التكليف واقعا بما لا سبيل للناس إليه ... وذلك فاسد غير جائز >>[37] .

وعليه فإن المعارضين يرون أن الله قد استوفى أصول الدين في القرآن الكريم ووضحها الرسول صلى الله عليه وسلم بما فيه الكفاية وترك قواعد العقائد ثابتة الأركان ، واضحة ، صريحة ، وبذا << لم يَكِلِ الناس إلى عقولهم في شئ من الدين >>[38]

2 ـ تحرّجهم الشديد من ا والنظر العقلي في الدين ، وإيثارهم الوقوف على ما كان عليه الصحابة والتابعون في إقرار العقائد . وحجتهم في ذلك : أن

---

(36) المائدة ، 3

(37) السيوطي ، صون المنطق ، ج1 ، ص141

(38) المغربي ، د. علي عبد الفتاح ، الفرق الكلامية الإسلامية ، ص110

النظر العقلي في أصول الدين لو كان خيرا لما فات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولتكلموا فيه . ولكنهم لم يفعلوا ، وإحجامهم عن هذا الأمر يحتمل وجهين : << إما أن يكونوا علموه فسكتوا عنه أو لم يعلموه بل جهلوه ... فإن كانوا علموه ولم يتكلموا فيه وسعنا نحن السكوت عنه كما وسعهم السكوت عنه ووسعنا ترك الخوض فيه لأنه لو كان من الدين ما وسعهم السكوت عنه ، وإن كانوا لم يعلموه وسعنا جهله كما وسع أولئك جهله >>[39] .

وقد اقتنع أهل السنة والحديث بهذا التفسير ، وكان حجتهم في مواقفهم مع خصومهم من علماء الكلام . ويروي الدميري أن شيخا ممن لحقهم الاضطهاد بسبب رفضه القول بخلق القرآن استدعاه الواثق ، ووقف أحمد بن أبي داوود لمحاكمته فلما ناقشه في قضية خلق القرآن رد عليه قائلا : << شئ لم يدع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر و لا عمر ولا عثمان ولا علي تدعو أنت الناس إليه ؟ ليس يخلو أن تقول علموه أو جهلوه . فإن قلت علموه وسكتوا عنه وَسَعني وإياكَ من السكوت ما وَسِعَ القوم ، وإن قلتَ جهلوه وعلمته أنت ، فيا لُكَعْ بْنُ لُكَعْ [40] ، يجهل النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم شيئا تعلمه أنت ؟ >>[41] .

3 ــ خشيتهم الفتنة والفرقة بين المسلمين بسبب استخدام المصطلحات الكلامية التي لم ترد في القرآن ولا في السنة ، ولم يعرفها الصحابة الكرام ، والتي أدت إلى<< منازعات وخصومات بين المسلمين لعدم الاتفاق

---

[39] الأشعري ، أبو الحسن ، استحسان الخوض في علم الكلام ، ص3 ــ 4 .

[40] لُكَعْ : لئيم ، أحمق.

[41] أبو زهرة ، محمد ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج1 ، ص173

عـــلى مدلولاتها وتركيباتها فأصـــح لكل فرقة تشقيقات كلامية تختلف عن غيرها ، وظهرت الفرقة بين صفوف المسلمين >>[42] .

أما القسم الذي أيد علم الكلام وانتصر له وهم المتكلمون بمدارسهم ومذاهبهم المختلفة كالمعتزلة والأشاعرة والماتريدية وغيرهم فقد استندوا بشكل خاص إلى الظروف التاريخية التي جدت على المسلمين بعد الفتنة الكبرى ، واتساع الفتوحات وما تبع ذلك كله من الهجوم السافر والمنظم على العقيدة الإسلامية التي أصبحت مرمى سهام الشبهات والشكوك المختلفة . وكان أصحاب المذاهب والديانات القديمة الذين قادوا هذا الهجوم لا يؤمنون بالقرآن الكريم ولا يعترفون بصدوره عن الله عز وجل ، ولا يعتقدون في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وعصمته . وقد استطاع بعضهم أن يثير البلبلة في نفوس المسلمين من ضعاف الإيمان كما نجح بعضهم في تكوين فرق ضالة شوّهت العقيدة الإسلامية وأدخلت عليها رواسب الديانات الوثنية والمحرفة .

وأمام هذه الحالة كان من أوجب الواجبات التي يحتمها الإسلام على أتباعه النهوض بأعباء الدفاع عنه . ولم تكن الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة كافية لردّ شبه المهاجمين ، فاحتاج علماء الإسلام للتزوّد بالسلاح نفسه الذي بحوزة أعدائهم ليتمكنوا من الرد عليهم وإفحامهم وإعادة الثقة للمسلمين بعقيدتهم في صفائها ونقائها وخلودها ، وخلوها من شوائب الشرك والأفكار الوثنية الضالة .

وكانت حجتهم القوية في جواز الاشتغال بعلم الكلام أن الفكرة المهاجمة لا تغلبها إلا فكرة أقوى منها ، وأن السكوت على ما يشيعه المغرضون من أراجيف حول الإسلام إذا لم يجد من يدفعه لن يلبث كثيرا حتى يهدم بناء

---

(42) السيوطي ، صون المنطق ، ج1 ، ص142

الدين ويقوض أركانه . وهو ما أشار إليه طـاش كبرى زاده حين احتج بأن علم الكلام ضروري لرد شبهات الملحدين و المبتدعة : << وهذه من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق >>[43] .

كما احتجوا بأن القرآن الكريم قد ضرب لنا المثل الأعلى في الجدل حيث طرح عقائد الأقوام الضالين ثم دحضها ببراهينه الساطعة وأدلته القوية ، ثم دعا أتباعه في صراحة ووضوح إلى الجدال مع المعارضين لهم في الاعتقاد بالتي هي أحسن أي بالحوار الهادئ وتبادل الرأي وقطع الطريق على الخصم بالدليل القوي الذي يجعله يعود إلى الحق ويسلم به . قال تعالى : { قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين }[44] وقال عز وجل : { إن عندكم من سلطان بهذا }[45] أي حجة وبرهان .

وقد أورد المتكلمون في مؤلفاتهم ردودا كثيرة على الفريق الأول الذي كان يعارض الاشتغال بعلم الكلام ويذهب إلى تحريمه . فاحتجوا لاستعمال المصطلحات الغريبة عن القرآن والحديث كالجوهر والعرض ، والتي عدها معارضوهم بدعة لم يعرفها السلف ، بأن كل علم ناشئ يحتاج إلى مصطلحات تفسّره وتحدد مواضيعه . وقد احتاجت علوم التفسير والحديث والفقه بعد نشوئها وتشعبها واتساع مواضيعها إلى مصطلحات لم يستعملها الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه من بعده ، ولم يطعن ذلك كله في قيمة العلم وسموّ هدفه ونبل مقاصده ، وقالوا في ذلك : << إن إحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح ، وإن كان

---

[43] زاده ، طاش كبرى ، مفتاح السعادة ، ج2 ، ص161

[44] البقرة ، 111 .

[45] يونس ، 68 .

المحذور هو المعنى فنحن لا نعني به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء في الشرع ، فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل ؟ >>[46] .

أما أنّ الصحابة لم يخوضوا في الأمور العقائدية المغيبة ، واكتفوا بما جاء في القرآن والحديث من دلائل الوحدانية وصفات الجلال والربوبية والوعد بالجنة والوعيد بالنار ، فإن المتكلمين يردون بأن السبب الذي منع الصحابة من ذلك قلة حاجتهم إلى المجادلة في هذه الأمور ، حيث لم يظهر في زمنهم من يثير هذه القضايا فلم يحتاجوا ـــ تبعا لذلك ـــ للكلام فيها : << أما قلة خوضهم فيه فإنه كان لقلة الحاجة إذ لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمان >>[47]

وعلى هذا الأساس أكدوا مشروعية الكلام في العقائد ، وبينوا أهميته وضرورة الاشتغال به ، وعدوا ذلك من أوجب الواجبات على المسلم بدليل أن :

1 ـــ أن علم الكلام أفضل المعارف الدينية ، وأشرف العلوم الشرعية لأنه يتعلق بأشرف المعلومات وهي ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته . كما أنه أساس غيره من العلوم الدينية ورأسها ورئيسها[48] . يقول التفتازاني : << وبالجملة هو أشرف العلوم لكونه أساس الأحكام الشرعية ورئيس العلوم الدينية ، وكون معلوماته العقائد الإسلامية ، وغايته الفوز بالسعادات الدينية والدنيوية ، وبراهينه الحجج القطعية المؤيد أكثرها بالأدلة السمعية . ومانقل عن بعض السلف من الطعن فيه والمنع عنه إنما هو للمتعصب في الدين ، والقاصر

---

(46) الغزالي ، أبو حامد ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص96

(47) المصدر نفسه ، ج1 ، ص96

(48) الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج1 ، ص307

عن تحصيل اليقين ، والقاصد إفساد عقائد المسلمين ، والخائض فيما لا يفتقر إليه من غوامض المتفلسفين >>[49] .

2 ـ أنه قد ثبت بالأدلة العقلية والنقلية أن تحصيل علم الكلام من الواجبات. ودليل ثبوت ذلك بالعقل أن المسلمين قد أجمعوا على وجوب معرفة الله سبحانه وتعالى مع اتفاق على أنها من أعظم القُرَبَ وأعلى موجبات الثواب . فإذا ثبت وجوب ذلك بالإجماع فمن ضرورة ثبوت وجوب وجوبه وجوب مالا يتوصل إليه إلا به [50] . أما دليل النقل فقوله تعالى : { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن }[51] . والمراد بالحكمة هنا ـ كما يقول علماء الكلام هو البرهان والحجة ، فالدعوة بالحجة والبرهان إلى الله تعالى مأمور بها[52] .

ويستدل علماء الكلام على وجوب تحصيل هذا العلم ، وكونه من الواجبات أن الله تعالى قد أمر بالنظر فقال : { أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا }[53] . وقال تعالى : { أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت }[54] ، كما أنه ذكر التفكر في معرض المدح فقال : { إن في ذلك لآيات لأولى الألباب }[55] وذم المعرضين عن التفكير في قوله

---

(49) التفتازاني ، شرح العقائد النسفية ، ص8

(50) الجويني ، الشامل في أصول الدين ، ج1 ، ص30

(51) النحل ، 125

(52) الرازي ، مفاتيح الغيب ، ج1 ، ص307 ومابعدها .

(53) النساء ، 82

(54) الغاشية ، 17

(55) الزمر ، 21

تعالى : { وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم ومعرضون }[56] .

3 ـ أن الدلائل الواردة في علم الكلام لإثبات العقائد مأخوذة من القرآن الكريم ، معلومة للنبي صلى الله عليه وسلم وصحابته . حيث تضمن القرآن أدلة إثبات وجود الخالق سبحانه ، وأدلة توحيده ، وصفاته ، وإثبات النبوة والمعاد وغير ذلك من العقائد التي هي صميم موضوع علم الكلام .

وخلاصة القول أن علم الكلام قد أثار ردود أفعال كثيرة بين مؤيد ومعارض ، وأسهب الفريقان في بيان مساوئه ومحاسنه ، بينما وجد فريق ثالث أغلبهم ينتمون إلى مدرستي الأشاعرة والماتريدية وهم الذين فرقوا بين موضوعات علم الكلام كونهم أقرب إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، فمنه الكلام المحمود ومنه المذموم ، وأيضا من حيث المشتغلين به والممنوعين من الاشتغال به .

فالكلام المحمود هو المباحث الخاصة بإثبات الواجب لله تعالى وصفاته ، والنبوة والمعاد على قانون الإسلام . وهذه المسائل ـ عندهم ـ هي أصل العلوم الشرعية وأساسها لأنها تفصل في الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر على وجه اليقين والإتقان . ومعرفة هذه المباحث على وجه الإجمال فرض عين على كل مسلم ، وعلى وجه التفصيل من فروض الكفاية [57] أما المذموم من علم الكلام فهو الذي يخوض في المسائل المخالفة للكتاب والسنة وإثباتها بأوجه تخالف ما جاء فيهما . ويذكر التفتازاني أربعة طوائف تمنع من الاشتغال بعلم الكلام لأنها تمثل الجانب المذموم منه وهي :

---

[56] يوسف ، 105

[57] المغربي ، د. علي عبد الفتاح ، الفرق الكلامية الإسلامية ، ص112

ـ الأولى : من هو متعصب يقصد بعلم الكلام ترويج مذهبه فيحرم لذلك تحقيق الحق في مطالبه .

ـ الثانية : من لم يرزق فطنة تفي بتحصيل اليقين فنظره في مبادئ علم الكلام يفضي إلى التشكيك في قواعد الدين . فعليه أن يتسم بسمة العاجز .

ـ الثالثة : من هو معوج في الدين مخطئ طريق اليقين ، غرضه من الاشتغال بمقاصد علم الكلام التمكن من إبطاله ورده .

ـ الرابعة : من يتوغل في الخوض في الحكمة فيقع في ظلمات الفلسفة ، فربما يعجب بفكره ورأيه ، والحق من ورائه [58] .

وعليه ، فقد رأى هذا الفريق أن علم الكلام ـ في حد ذاته ـ ليس علما محمودا أو مذموما وإنما تتبين فائدته أو خطره من الطريقة التي يتعامل بها المتكلمون معه بناء على أهدافهم من الاشتغال به وهو الموقف الذي عبر عنه الإمام الغزالي أصدق تعبير ، إذ يرى أن علم الكلام علم محمود وغرضه الأصلي حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش البدعة [59]

والمتكلمون هم حراس العقيدة من شبهات المبتدعة ويجب أن يكون مقصد علم الكلام الأسمى الإيمان ، فهو بمثابة الوسيلة من حيث الحاجة إليها أو عدم الحاجة وعليه ، فهو يعارض أن يخوض العلماء والعوام في علم الكلام في البلاد التي تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب ، وأن يقتصر على بيان العقائد المعروفة دون التعرض للأدلة إلى أن تقع الشبهة ، وحينذاك تذكر الأدلة

---

[58] التفتازاني ، شرح العقائد النسفية ، ص18 ـ 19

[59] الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص87 .

بقدر الحاجة . ولا يجوز ــ في رأيه ــ الخوض في الأدلة الكلامية وإشراك العامة فيها ــ إلا إذا شاعت البدعة وخيف على الناس أن يخدعوا بها [60]

وهو بذلك يحرم الخوض في علم الكلام إلا على شخصين : رجل وقعت له شبهة لا يمكن إزالتها عنه بكلام وعظي ، وعلم أن الأدلة الكلامية المرتبة ترفع شبهته وتداويها ، ورجل كامل العقل راسخ القدم في الدين ثابت الإيمان ، يريد تحصيله ليداوي مريضا إذا وقعت له شبهة ، أو يفحم به مبتدعا أو يحرص معتقده إذا أراد مبتدع إغواءه [61] .

وبذلك يحصر الغزالي الاشتغال بعلم الكلام على العلماء الراسخين في العلم الذين يحملهم مسؤولية اليقظة الدائمة للتصدى لكل شبهة وهو يرى أن علم الكلام يجب أن يوسع موضوعاته فيتجاوز نصرة العقيدة إلى الدفاع عن الشريعة أيضا وخلاصة رأيه في علم الكلام << أن فيه منفعة وفيه مضرة ، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال ، وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام >>[62] .

---

[60] الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص98 .

[61] الغزالي ، فيصل التفرقة ، ص173 ــ 174 .

[62] الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، ص97 .

الفصل السابع

موقف المحدثين من علم الكلام

ومثلما اختلف العلماء القدامى في علم الكلام وانقسموا بين متشدد في المعارضة ومؤيد مطلق ، كذلك كان الحال بالنسبة للعلماء المحدثين والمعاصرين الذين ورثوا التراث الكلامي الذي ظل طوال عصور الانحطاط المرجع الأساسي لطلبة العلم في العقيدة والفكر.

ومع هبوب رياح النهضة وبداية دخول العالم العربي والإسلامي عهد اليقظة كان لابد أن تتم إعادة النظر في الموروث الثقافي الذي وصل إلينا عبر القرون لتقييمه وإعادة إدماج الصالح منه في حركة البعث الحضاري التي بدأت . وكان علم الكلام من بين العلوم التي خضعت لعملية المراجعة والانتقاء هذه ، وانقسم الدارسون بشأنه إلى قسمين : قسم يطالب بإبقائه مادة أساسية لدراسة العقيدة بعد تخليصه مما شابه عبر العصور من مناهج فاسدة ومواضيع دخيلة وقضايا قديمة تجاوزها الزمن ، وتجديده ليتلاءم مع تحديات العصر الحاضر . وقسم ثان يطالب بإلغائه تماما ومنع تدريسه في الجامعات والمعاهد العليا لعدم اتفاقه مع التوجهات الحقيقية للعقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن والسنة ، واختلاطه بالمناهج الفلسفية اليونانية الوثنية وعدم ملاءمته لمستجدات العصر الحديث. وسنحاول فيما يلي أن نتحدث عن مؤيدات كل من الفريقين ومبرراته

أولا ــ موقف المنادين بتجديد علم الكلام :

من أوائل العلماء المسلمين الذين دعوا إلى تجديد علم الكلام الإمام محمد عبده (ت 1905 م) الذي اجتهد في إعادة صياغته ، وعمل على تنقيته من

كثير من القضايا التي عدها غير جديرة بالتنويه مثل حكم مرتكب الكبيرة والبحث في الإمامة وسؤال القبر وهل المقتول ميت بأجله وغيرها من القضايا التي استنفذت جهودا كبيرة من المتكلمين القدامى دون أن يكون لها أثر يذكر في تثبيت العقيدة .

وقد ركز في عرضه للعقائد الإسلامية على منهج القرآن في تحريك العقل لإيجاد الأدلة على وجود الله ، وصدق نبوة رسوله عليه الصلاة والسلام لأنه يعتقد أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل مؤكدا أن الدين جاء ليقدر العقل البشري ويعلي مترلته ولذا : << لم يطلب منا التسليم بقضايا الدين لمجرد ورودها في القرآن الكريم بل أقام الدعوى وبرهن وعرض لرأي المخالفين ورد عليهم بالحجة القاطعة والأدلة الدامغة وخاطب العقل واستنهض الفكر وعرض نظام الكون وطالب العقول أن تنظر وترجع البصر لتتصل بذلك إلى اليقين >>[1] .

وعلى الرغم من أنه انتقد مناهج المتكلمين القدامى واتهمهم بإشعال نار الفتن بين المسلمين ، وإحداث فوضى عقلية بينهم بتحميل الدين ما ليس منه والتعصب المقيت لآرائهم وتأسف كثيرا للصراع الذي قام بين مختلف الفرق الإسلامية الكثيرة إلا أن هذه العثرات جميعا ليست مبررا لإنكار الخدمات الجليلة التي بإمكان علم الكلام أن يسديها للعقيدة إذا تخلص مما شابه من انحرافات وتعقيدات ، لأن من أسمى أهدافه : << معرفة الله سبحانه وتعالى مع ما يجب له من الصفات ، وتتريهه عما يستحيل اتصافه به والتصديق برسله كل ذلك بملء اليقين اعتمادا على الدليل مع تحريك النظر والفكر والعقل والبعد عن التقليد انسجاما مع منهج القرآن الكريم في الحث على النظر في الكون وفي

---

(1) عبده ، محمد ، رسالة التوحيد ، ص24

السماء والأرض واختلاف الليل والنهار والوصول بذلك إلى مرتبة اليقين الذي تطمئن به النفوس >>[2]

وأبرز ما ميز منهج الإمام محمد عبده الكلامي الاعْتماد على نتائج العلم الحديث في تثبيت العقائد ، مع تقديم النصوص الشرعية والاعتراف بمحدودية العقل وقصوره عن إدراك حقيقة الذات الإلهية أو صفاتها لأنه أظهر عجزه عن إدراك كنه كثير من المحسوسات التي توجد في الطبيعة فما بالك بما وراء الطبيعة . وفي ضوء هذا المنهج المعتدل الذي يقرّ بأولوية النصـــوص المعصومة ،ويعطي للعقل مكانته المتميزة في معرفة الحق والوصول إلى اليقين ، ناقش الإمام محمد عبده أمهات القضايا العقائدية التي كانت وما تزال موضع تساؤل الإنسان مثل : وحدانية الله وبطلان التعدد ، وإثبات نسبة صفات الكمال له من الحياة والعلم والإرادة والقدرة وغيرها ، ومسألة الجبر والاختيار ، والحاجـــة إلى الرسول ، والحسن والقبح أو الخير والشر ، والوحي ، والحياة الأخرى ... إلخ

ومـــن العلماء المنادين بتجديد علم الكلام بديع الزمان سعيد النورسي (1873 ـ 1960 م) أحد مشاهير العلماء الأتراك الذين عايشوا الحرب الحضارية المنظمة التي شنها الغرب على الدولة العثمانية ، وقد كان يدعو إلى تجديد علم الكلام لأنه يعتقد أن شكله القديم يسير في طريق مسدود لا يوصل إلى الغاية المنشودة منه ، لذلك عكف على التخطيط لعلم كلام جديد مبني على القرآن الكريم ومستند بشكل خاص على الأدلة العقلية الفطرية الواردة فيه في إثبات حقائق الوجود .

واستعان في توضيح هذه الأدلة بما استوعبته ذاكرته من علوم العصر الحديث ومعارفه ، وعرض مادة علم الكلام الجديد في أسلوب عصري يخاطب

---

(2) عبده ، محمد ، رسالة التوحيد ، ص25

العقل والوجدان معا ، وبذلك نجح في نقل علم التوحيد من نظريات فلسفية مجردة يقتصر فهمها على الخاصة من العلماء فقط ، إلى سلوك يومي يحرك العقل ويثير العاطفة .

وقد استطاع النورسي أن يربي جيلا من التلامذة على هذا النهج الجديد وأن يخرج طائفة من الشباب المستنير الذي عمل على مواجهة المذاهب الفكريـــة والتيارات الإلحادية وأن يحافظ على الروح الإسلامية في أوصال تركيا [3]

ويعد وحيد الدين خان أحد علماء الإسلام المشاهير الذين تبنوا قضية إحياء علم الكلام وتجديده مستندا في ذلك إلى ما شهده العصر الحديث من تغيرات حضارية كبرى أهمها على الإطلاق التقدم العلمي المذهل الذي أحدث انقلابا جذريا في العالم ، والذي انصب اهتمامه على الجانب المادي مما أدى إلى حدوث اختلال في الحياة الإنسانية برز بشكل صارخ في الخواء الروحي الذي عصف بالإنسان الحديث عموما والفرد الغربي خصوصا .

وانطلاقا من إيمانه العميق بقدرة الإسلام الهائلة على مداواة هذا الانحراف ، وامتلاكه الإجابة الشافية عن التساؤلات المصيرية التي تؤرق الإنسان في كل عصر ومصر ، وأمام فشل المنظومات الفكرية الإلحادية في سد هذه الثغرة التي باتت تهدد استقرار الإنسان النفسي دعا إلى علم كلام جديد يُمْكِنُ المسلمين من القيام بدورهم في تبليغ رسالة الإسلام بالاعتماد علـــى مـــا أنتجه العلم الحديث من كشوف واختراعات تدعم العقائد الإسلامية وتقربها من عقل الإنسان المعاصر وقلبه وفي ذلك يقول : << تتلخص حقيقـــة علم الكلام الجديد فـــي أنه استجلاء حقائق الدين بالأدلة التي تطمئن الذهن

---

[3] محسن ، عبد الحميد . تجديد الفكر الإسلامي . ص87 ـ 88 .

الجديد والعقلية الجديدة ، وتــوصل التعاليم الإسلامية بأحدث أساليب الاستدلال الملائمـــة للعقل الجديد . فما هو العقل الجديد ؟ إن مدلول هذه الكلمة مدلول مرادف لكلمة العقل العلمي أو العقليـــــة العلمية . والعقلية العلمية عقلية مهمتها الحقائق >>[4] .

وهو يرى أن علم الكلام الجديد يجب أن ينسجم مع طبيعة التفكير الجديد الذي صاغته حقائق العلوم التجريبية وبذلك يختلف تماما عن علم الكلام القديم الذي يعتمد على المنهج الفلسفي والحجج المنطقية ، على الرغم من اتحاد هدفيهما ، وإن كان المنهج الجديد في رأيه أقرب إلى روح القرآن من المنهج القديم : << ومنهج البحث عن القوانين الموجودة في الكون هو " علم الكلام القرآني " وهو القوة المرهبة التي دعانا الله تعالى لإعدادها باعتبار أن القوة في هذا العصر هي قوة العلم ، فحين تحررت الأمم الإسلامية سياسيا خضعت لاستعمار علمي حضاري >>[5] .

وقد دعا بحماس شديد إلى تدوين هذا العلم بالاعتماد على عدة أسس منها : صياغة نظرية علمية قائمة على أسس قرآنية أي على منهج الاستدلال الاستنباطي ، وتدوين علم الآثار القرآني الذي يسميه القرآن أيام الله ومعناه دراسة الأحداث والوقائع التاريخية من القرآن واستنباط السنن التي تحكمها ، وتدوين آيات الآفاق والكون وفق مكتشفات العلم الحديثة :<< فالعلوم الطبيعية الحديثة أصبحت ــ وبدون مبالغة ــ علم الكلام الإسلامي وواجبنا هو تدوينها >>[6] وتدوين آيات الأنفس التي تبحث في النفس البشرية وفق

---

[4] خان ، وحيد الدين ، قضية البعث الاسلامي ، ص102

[5] المصدر نفسه ، ص98 ــ 99

[6] خان ، وحيد الدين ، الاسلام والعصر الحديث ، ص77 ــ 78

معطيات علم النفس الحديث . وهو يؤكد أن المسلمين اليوم لو اعتنوا بتدوين تعاليم القرآن والسيرة والحديث وأحوال الصحابة وتاريخ الإسلام بأسلوب علمي واقعي بسيط ونشروها بمختلف لغات العالم فسيكونون قد حققوا هدف علم الكلام في العصر الحاضر على الأقل [7] .

ويعد كتابه ((الإسلام يتحدّى)) والذي رد فيه على بعض النظريات الفلسفية الغربية الحديثة متبعا منهج الاستدلال العلمي ، نموذجا حيا لعلم الكلام الجديد الذي دعا إليه . وفي هذا الإطار نفسه اقترح إنشاء ((مركز إسلامي عالمي)) لتوحيد جهود علماء المسلمين على نطاق واسع ، بتجهيزه بجميع الوسائل العصرية لنشر الأفكار الإسلامية الهادية عن طريق إصدار المجلات الإسلامية والكتب بمختلف اللغات ، وإعداد الشباب المثقف الواعي وإقامة المعارض العالمية ، مع الحرص على إبعاد نشاطاته الدعوية عن كل عمل سياسي ، وكان يرى في هذا المركز : ((مصدر الطاقة المفجرة للدعوة الإسلامية العالمية))[8] .

وممن سار في هذا الاتجاه أيضا الدكتور علي عبد الفتاح المغربي الذي لم يحبذ ما قاله ابن خلدون من أن علم الكلام قد استنفذ أغراضه بانقراض الفرق المبتدعة والملحدة [9] . ويرى أن الحديث في العقائد أمر لا يخص زمانا بعينه ، وإنما هو موضوع يشغل بال الإنسان في كل زمان و مكان ، لذلك فهو يدعو إلى إيجاد علم كلام جديد وحديث ، يتم بموجبه تنقية التراث الكلامي القديم بإخضاعه للنقد ، واستبعاد كل ما تمخض عنه من تجاوزات وانحرافات عقلية

---

[7] خان ، وحيد الدين ، الإسلام والعصر الحديث ، ص81

[8] بدر الدين ، محمد ." وحيد الدين خان" .مجلة الأمة ،ع59 ، يونيو 1985 ، ص34

[9] راجع : ابن خلدون ، عبد الرحمن ، المقدمة ، ص467 .

وعقدية ، والتخلص كذلك من المنهج الفلسفي الذي كان السمة الغالبة عليه ، ومحاولة إثبات العقائد انطلاقا من العلم التجريبي الذي هو طابع العصر[10] .

فعن طريق الإحاطة الشاملة بالتطورات التي يشهدها العلم ، والنتائج المذهلة التي توصل إليها يمكن دعم العقائد الإسلامية بما يجعلها مطلبا روحيا وأخلاقيا وتشريعيا ضروريا للإنسان الحديث الذي فقد كثيرا من سماته الإنسانية وأشواقه الروحية في عالم المادة الجاف الذي أحاط به نفسه ، وهو ما زاد في شقائه بدل أن يسعده : << وإذا كان علم الكلام يقوم بالرد على الملحدين فإن سمة الإلحاد في هذا العصر هي العلم ، فهو إلحاد باسم العلم .. فعلى علم الكلام أن يخوض دائرة العلم المعاصر وذلك ليستوعب سلاح الخصم ويتفوق عليه >>[11] .

ويرى أيضا أن بإمكان التراث الضخم الذي خلفه علماء الإسلام في ميدان علم الكلام أن يكون أساسا صحيحا لفلسفة إسلامية حديثة [12] بعد أن يشرف على فرزه المختصون الذين سيأخذون منه ما يفيد ويقصون مالا ينفع .

أما الدكتور محسن عبد الحميد فيرى أن علم الكلام القديم قد عبر عن مظاهر الفكر في زمنه ، واستجاب للتحديات التي ظهرت في ذلك الوقت بفعل العوامل الداخلية والخارجية . وعليه ، فإن كثيرا مما خلفه لنا المتكلمون القدامى أصبح اليوم مواد متحفية لا قيمة لها ولا تأثير ، ويجب أن تنحصر دراستها في : << دوائر ثقافية ضيقة كأقسام الفلسفة في الجامعات الإسلامية >>[13] .

---

[10] المغربي ، د. علي عبد الفتاح ، الفرق الكلامية الاسلامية ، ص115

[11] المرجع نفسه ، ص116

[12] المرجع نفسه ، ص117

[13] عبدالحميد ، د. محسن ، تجديد الفكر الاسلامي ، ص60

وفي المقابل ، يجب على المفكرين المسلمين أن يوجدوا علم كلام جديد يعالج فكر العصر وأزماته وقضاياه بعمق ودقة وموضوعية تكشف حقائق نظرة الإسلام إلى الكون والحياة والمجتمع والإنسان .

ويجب أن يرتكز علم الكلام الجديد على المنطق والعلم الحديثين ، وينطلق منهما مؤيدا بمقولات الوحي الصادق ليلحق الهزيمة الفكرية بالفلسفات المادية الحديثة التي أعلنت القطيعة مع خالق الوجود ، ودعت إلى تأليه الإنسان ولينقذ الجيل المسلم من الاضطراب والقلق والحيرة ، ويشعره بأصالته [14] .

وبذلك يثبت الفكر الإسلامي وجوده من خلال فهم واحتواء التغيرات والصراعات التي يموج بها العصر الحاضر في ضوء أصول الإسلام و قواعده ومقاصده بالاستجابة لها في جوانب ،وتطويعها وضبطها في جوانب أخرى ، واستبعاد كل ما يصطدم معها .

ومن بين المفكرين المعاصرين الذين أدلوا بدلوهم في هذا الموضوع عبد المجيد النجار الذي دافع بحرارة عن علم الكلام القديم ، وأسهب في ذكر مزاياه وتمجيد دوره التاريخي في دفع الشبهات عن العقيدة الإسلامية والمحافظة عليها ، كما أشاد بعلماء الكلام القدامى الذين استطاعوا بجدارة أن يقوموا بدور حضاري خطير في مواجهة المعتقدات الغازية عن طريق التنويع في أساليب هذه المواجهة بتنوع أساليب التحدي وقد اتسم هذا العلم في طور ازدهاره بالصبغة الدفاعية الواقعية مما مكنه من مواكبة جميع التغيرات التي ما فتئت تطرأ على الساحة الفكرية ، وهيئة الطرق المناسبة لمواجهتها .

واستنادا إلى ذلك فهو يرى أن ما أصاب علم الكلام بعد القرن السابع الهجري من انحطاط وجمود وميل إلى الشروح والتعليقات ليس مبررا لاستبعاده

---

[14] عبد الحميد ، د. محسن ، تجديد الفكر الإسلامي ، ص61

وإقصائه من الساحة الفكرية الإسلامية الحديثة ، وهي أشد ما تكون حاجة إليه . وعليه فإن من بين الضرورات الملحة التي يتطلبها الواقع الإسلامي اليوم إيجاد علم كلام حديث يواجه المذاهب الفكرية الفلسفية الفتية التي وجهت سهامها إلى << الاعتقاد الديني عموما والعقيدة الإسلامية خصوصا بأقسى هجوم عرفته العقيدة على مدى تاريخها >>[15] كالوضعية والوجودية والتطورية والشيوعية وغيرها . وهي على اختلاف أسمائها : << راجعة إلى أصل مشترك هو المبدأ المادي الذي ملأ هذا العصر . وقائمة على معنى واحد هو إنكار الوجود الغيبي >>[16] .

ويعتقد عبد المجيد النجار أن التراث الكلامي الذي وصل إلينا ، والذي يغطي فترة ازدهار هذا العلم وتألقه ، يعد تجربة غنية صالحة لأن تبقى مصدر إلهام حقيقي للفكر الإسلامي . وبإمكاننا أن نستفيد منها اليوم خاصة في الأسس العامة للمواجهة وطرقها وأساليبها ،باعتبار أن من بين أبرز ما ميز علم الكلام في أوج تطوره معرفة المتكلمين الدقيقة للتوقع الفكري للخصم سواء من حيث الأفكار أو من حيث أسلوب التفكير و العرض ، والتي مكنتهم من تحديد المواضيع ورسم المناهج و الأساليب :<< فكذلك علم الكلام الحديث ينبغي أن يتأسس وينبني على المبدأ العام بالنظر إلى طبيعة الفكر الحديث و أساليبه >>[17] ونظرا للطابع المادي الذي طغى على الفكر الحديث وأصبح مرجع كثير من الناس في هذا العصر، فقد تغيرت ـ تبعا لذلك ـ الموضوعات التي يعالجها علم الكلام الحديث ، فبدل أن يثبت وحدانية الله ،عليه أن يتجه إلى قضية إثبات

---

(15) النجار ، عبد المجيد ، مباحث في منهجية الفكر الاسلامي ، ص121

(16) المصدر نفسه، ص122

(17) المصدر نفسه .ص123

الوجود الإلهي و خلــق العالم ،ومــا يستلزم ذلك مــن نقض لدعاوى الصدفة و حتمية المادة .

وبدل أن يثبت نبوة محمد عليه الصلاة والسلام عليه أن يهتم بإثبات إمكان النبوة عموما ،والملاحظة نفسها تنطبق على القضايا الغيبية الأخرى التي تعد أركانا هامة في العقيدة كخلود النفس و إمكــان البعث وثبوت الجزاء:<< لأن المعترضين اليوم لا يركزون على إنكار نبوة بعض الأنبياء،ولكن ينكرون ظاهرة النبوة عموما وكذلك البعث والخلود باعتبار أن هذه كلها لا تستقيم مع المنطق المادي>>[18] .

أما بالنسبة للمنهج ،فهو يقرر أن الأسلوب الفلسفي الذي يعتمد على معطيات علم النفس و علم الاجتماع الحديثة بإمكانه أن يؤيد كثيرا من جوانب العقيدة الإسلامية المتجاوبة مع صميم الفطرة الإنسانية ،وإلى جانبه الأسلوب العلمي الذي يبقى :<< أكثر ما يحتاج إليه علم الكلام اليوم من الأساليب لتأدية رسالته ،وذلك لأنه أنجع الأساليب لإقناع العقلية الحديثة لما عليه هذه العقلية من الاعتداد بالعلم التجريبي و نتائجه >>[19] .

وعليه فإن من أوجب الواجبات على العلماء المسلمين أن يكون زادهم مــــن العلم موفورا ، وكافيا لأن يستعملوه كمقدمات لبناء الأدلة التي تثبت الحقائق الدينية .ويقترح عبد المجيد النجار أن يتولى مهمة قيادة هذا العلم والسير به في طريقه الصحيح مختصون مسلمون متضلعون في كل من ميدان العلم التجريبي بفروعه والفلسفة قديمها وحديثه وعلوم الدين[20] ،حتى يتمكنوا من

---

[18] النجار ، عبد المجيد ، مباحث في منهجية الفكر الاسلامي.ص129

[19] المصدر نفسه . ص130

[20] المصدر نفسه. ص132

إحداث التكامل بينهم لإيجاد حركة علم كلام حديث قوية وقادرة على المواجهة الحضارية

وهناك ــ إلى جانب هؤلاء المفكرين والدارسين ــ طائفة هامة من العلماء المحدثين الذين يتفقون على ضرورة إحياء علم الكلام بشروط خاصة تتمثل بشكل عام فيما يلي:

1 ــ استبعاد مناهج المتكلمين القدامى لانحرافها عن المنهج الإسلامي الأصيل الذي يستمد قواعده من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة واستنادها في أحيان كثيرة إلى مناهج الفلاسفة اليونان الذين يعدون زعماء الفكر الوثني واستبدال ذلك كله بالمنطق العقلي المعتمد على العلم الحديث .

2 ــ عدم إحياء المشكلات الكلامية القديمة التي ثار حولها النزاع لأنها أصبحت ماضيا بعيدا ،والتركيز على الشبهات و المسائل الشائكة الحديثة التي تعترض الإسلام وتقف عائقا بين المسلمين ومصدري تشريعهم الأصلي :الكتاب والسنة ،وبين غير المسلمين و منبع الإسلام الصافي الذي يخاطب الفطرة ويروي الأشواق الروحية و يحد من غلواء العقل وجموح الغرائز في زمن أصبحت المادة هي سيدة الموقف في كل حال .

واقترح بعضهم أن ينصب اهتمام علم الكلام الجديد حول قضيتين أساسيتين:

1 ــ مقاومة الخرافات والبدع التي عششت في العقل الإسلامي فزعزعت العقيدة الصحيحة في نفوس المسلمين ،وأصابتهم بالوهن الذي جعلهم يركنون للكسل والتواكل ويرضون بالذل والدونيـــة في دينهم ودنياهم ، كالسعي إلى المنجمين و المشعوذين و الاعتقاد أنهم يعرفون الغيب و يحققون الآمال ،و تقديس الموتى والفرار إلى قبورهم لطلب العون والمساعدة بدل إعداد

الأسباب واللجوء إلى الله لطلب التوفيق وقد كان هذا الاعتقاد الضال سببا في كثير من الهزائم التي مني بها المسلمون في عهود تخلفهم ،ولعل في المثال الآتي دليل على ذلك :<< عندما احتل الإنجليز القاهرة في القرن الماضي ذهب حشاش إلى قبر الإمام الشافعي يلومه كيف عجز عن رد هؤلاء المغيرين ؟ فقال له حشاش آخر معتذرا : إذا كان الأكبر منه الإمام حسين نفسه عجز عن ردهم فما يفعل هو ؟>> [21] .

والعمل ــ في الوقت نفسه ــ على التصدي للغزو الفكري الذي لعب دورا أساسيا في بلبلة أفكار المسلمين وتشكيكهم في دينهم وفي صلاحية تعاليمه للحياة الحرة الكريمة ، ومحاولة الإحاطة بالفرق الضالة الحديثة ، والمذاهب والحركات المعاصرة التي تناصب الإسلام العداء ، وتعمل على هدمه مثل القاديانية والبهائية والوجودية والنصيرية والماسونية والشيوعية والصهيونية وغيرها .فإذا استطاع علم الكلام الجديد أن يتعمق في دراسة هذه المشكلات ويدرك أبعادها النفسية والاجتماعية والفكرية فإنه سيتمكن من : << قيادة التطور الحضاري للأمة الإسلامية عن طريق الإسلام الصحيح >>[22] .

2 ــ العودة في تقرير العقائد ودراسة قضاياها إلى ما أثر عن السلف الصالح قبل ظهور الخلاف ، وتسلل الفلسفة اليونانية إلى العقل المسلم ، وهو عصر البساطة وعدم التأويل وهذا المنهج يقتضي :

أ ــ الاعتماد على القرآن الكريم والحديث في بيان الأدلة التي تدل على وحدانية الله وعظمته وجلاله وبدائع صنعه ، واستخدام العقل استخداما سليما يزاوج بين الفكر والوجدان والترغيب والترهيب ومخاطبة عقل الإنسان

---

(21) الغزالى ،محمد. دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ، ص150 .

(22) موسى ، محمد يوسف ، القرآن والفلسفة ، ص151 .

وعاطفته في آن واحد كما هو واضح في آيات الكتاب المبين ، وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام .

ب ـ طرح جميع المسائل الغيبية الشائكة التي سكت الوحي عن الحديث عنها ، والإيمان بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ، والإيمان بأن للعقل حدا يجب أن يقف عنده ، ليس من باب الحجر عليه : << وإنما لحمايته من تبديد طاقته في مجال ليس أهلاً له >>[23] . ومن ثم وجب أن نؤمن بآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يلحق بذلك من المتشابه كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل : << وكل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عه شرعا ، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع ، والخوض في معاني الآيات القرآنية التي لم يصل إليها العلم بعد >>[24]

ج ـ استقراء النصوص المتعلقة بالموضوع الواحد ودراستها دراسة موضوعية متكاملة تمنع الاضطراب في التفسير والفهم ، وتحول دون ضرب النصوص بعضها ببعض كما حدث في مسألة الجبر والاختيار التي تحولت إلى موضوع غامض ومشوه على أيدي المتكلمين الذين انقسموا بين قائل بالجبر وقائل بالاختيار مما أدى إلى تأويل نصوص الوحي تأويلا فاسدا أدخل الشك والاضطراب في نفوس كثير من المسلمين : << ووضع القضية في نصابها الصحيح كما جاءت في القرآن والسنة سيوصلنا إلى أسلم النتائج وأقربها إلى روح العقيدة وفلسفة التشريع >>[25] .

---

(23) الدسوقي ، د. محمد ، منهج البحث في العلوم الإسلامية ، ص358

(24) الغزالي ، محمد ، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ، ص137

(25) الدسوقي ، د. محمد ، منهج البحث في العلوم الإسلامية ، ص362

ثانيا ــ موقف المعارضين لعلم الكلام :

أما المعارضون لعلم الكلام فقد انطلقوا ــ في موقفهم هذا ــ من الآثار الوخيمة التي خلفها هذا العلم في وحدة المسلمين وصفاء عقيدقم . إذ تكاد تتفق الطائفة التي انتقدته بشدة على أن معظم المخلفات التي أفسدت عقيدة المسلمين وفرقت صفوفهم وانحرفت بهم عن المنهاج القويم الذي رسمه لهم القرآن وأرشدقم إليه السنة النبوية إنما كان ــ في معظمه ــ بسبب ما جرى بين الفرق الكلامية من خلافات عقيدية تطورت على مر الزمان لتصبح عاملا قويا من عوامل الفرقة ،وصورة مشوهة للعقيدة الإسلامية الصافية ، وربما عملت بعض هذه الخلافات ــ في عصور الانحطاط ــ على ترسيخ كثير من المفاهيم الخاطئة عن الإسلام وأسهمت في تكريس ضعفهم . هذا بالإضافة إلى ما صبغت به العقيدة من صبغة عقلية جافة ، تجاهلت بها الجانب الوجداني الإنساني ، وجردقا من دفء العاطفة التي تعد المكون النفسي الأساسي الثاني للإنسان إلى جانب العقل .

وممن أبدوا معارضتهم القوية لدراسة العقائد بطريقة المتكلمين الشيخ عبد الحميد بن باديس (ت **1940**) الذي كان يؤمن أن القرآن قادر بما فيه من الأدلة القوية والشواهد المؤيدة التي تقنع العقل وتُطَمْئنُ النفس على إصلاح النفوس التي انحرفت وزاغت ، وتطهير القلوب التي أعمتها المعاصي وغطى عليها الجهل . وكان يدعو العلماء المسلمين الذين شغلهم علم الكلام ، وشغفوا بطرق الاستدلال العقلي أن يستطلعوا معالم العقيدة من القرآن الكريم ، وأن يستنبطوا أدلتها الماثلة في سوره وآياته ويبدو أن الاقتناع بضرورة أخذ العقيدة من القرآن و السنة كان شعورا متمكنا في أعماقه منذ سن مبكرة بشهادة الإبراهيمي الذي يقول : << والإمام رضي الله عنه كان منذ طلبه العلم بتونس

قبل ذلك ــ وهو في مقتبل الشباب ــ ينكر بذوقه ما كان عليه مشايخه من تربية تلامذهم على طريقة المتكلمين في العقائد الإسلامية ويتمنى أن يخرجهم على الطريقة القرآنية السلفية في العقائد يوم يصبح معلما >>[26] .

وقد عزا انتشار الجهل بين المسلمين وعجز الطلبة ــ في القرون الأخيرة ــ عن استيعاب العقائد الإسلامية إلى الاعتماد على علم الكلام في التعليم ، مع كل ما يتضمن من مصطلحات غامضة ومناقشات فلسفية معقدة ، لذلك فهو يرى أن أسلم طريق لأخذ العقيدة هو تلقينها للمسلمين من القرآن الذي بسطها وقربها من العقل والنفس ، بدل اللجوء إلى علم الكلام الذي لا يجدي نفعا في هذا المجال : << بسط القرآن عقائد الإيمان بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاها المتعددة واصطلاحاها الصعبة مما يصعب أمره على الطلبة فضلا عن العامة >>[27] .

وهو يعتقد أن في الكتاب والسنة الغنى عن كل مصدر آخر لمعرفة الله عز وجل وإثبات توحيده وصفاته وأسمائه الحسنى ، وأن طريقة القرآن في تقرير العقيدة لا تعد لها طريقة أخرى في بساطتها وعفويتها وحسن مدخلها إلى النفوس على عكس ما هو شائع في طرق المتكلمين من إجهاد للعقل وإعنات للفكر : << أدلة العقائد مبسوطة في القرآن العظيم بغاية البيان وهاية التيسير ، وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيها ، وبياها وتفاصيلها في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم ... ولن يجد العامي أدلة العقائد سهلة قريبة إلا في كتاب الله ، فهو الذي يجب على أهل العلم أن

---

[26] ابن باديس ، العقائد الإسلامية ، تصدير : محمد البشير الإبراهيمي ، ص6

[27] تفسير عبد الحميد بن باديس ، ص282

يرجعوا في تعليم العقائد للمسلمين إليه . أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية ، فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق العلم إلى عباده وهم في أشد الحاجة إليه . لقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه >>[28] .

وقد طبق هذا المنهج الذي آمن به عمليا عندما تصدى للتعليم في الجامع الأخضر بقسنطينة ، فلقن طلبته أصول العقائد الإسلامية كما بسطها القرآن الكريم ، ووضحتها السنة الشريفة ، وظل على هذه الحال طيلة سبع وعشرين سنة يخرّج أفواج المتعلمين على الطريقة السلفية ، ويبني عقائدهم كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد أشار الإبراهيمي إلى ذلك في قوله : << وقد بلغه الله أمنيته فأخرج للأمة الجزائرية أجيالا على هذه الطريقة السلفية قاموا بحمل الأمانة من بعده ، ووراءهم أجيال أخرى من العوام الذين سعدوا بحضور دروسه ومجالسه العلمية . وقد تربت هذه الأجيال على هداية القرآن فهجرت ضلال العقائد وبدع العبادات ، فطهرت نفوسها من بقايا الجاهلية التي هي من آثار الطرائق القديمة في التعليم >>[29] . وجمعت هذه الدروس فيما بعد في كتاب يحمل عنوان << العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية >> .

أما الإمام حسن البنا (ت 1948) فقد حرص على لزوم منهاج السلف الصالح في فهم العقيدة ، وعده المنهاج القويم والصراط المستقيم لأن أصحابه مشهود لهم بالإيمان والفضل والإحسان ، وقد تلقوا العقيدة من مشكاة

---

[28] تفسير ابن باديس ، ص158

[29] ابن باديس ، ، العقائد الإسلامية ، تصدير : محمد البشير الإبراهيمي ، ص6

النبوة عذبا زلالا . لذلك فهو يستبعد المنهج الكلامي استبعادا تاما في مجال العقيدة ، إيمانا منه بقصوره عن تصويرها كما فعل ذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة وطبقها السلف الصالح وفي ذلك يقول : << لن ألجأ إلى المصطلحات الفنية التي تواضع عليها العلماء المختصون بعلم الكلام ، ولن أحاول الخوض في النظريات الفلسفية ، أو الأساليب المنطقية التي درج عليها المتكلمون حين يعالجون مثل هذه الموضوعات ، ولكنني سألجأ إلى القرآن الكريم ، وإلى السنة المطهرة وإلى ما عرفنا من سيرة الصدر الأول من المؤمنين بهذا الدين ، وهم لا شك أصفى الناس فطرة وألينهم قلوبا ، وأدقهم إدراكا للمقاصد وأعرفهم بمواقع الألفاظ ، والجمل والتراكيب وأعذبهم تذوقا لدقائق المعاني والمشاعر >>[30] .

وهو يرى أن العقيدة قد أصابها الوهن والخلل ، وتسلل إليها الضعف منذ أن فقدت تأثيرها على النفوس وعزلت عن مواقع العواطف والوجدان التي تجعلها تيارا حيا ومتوثبا يهز الضمائر ويوجه الناس إلى العمل الصالح ، فتناوُلُها بطريقة المتكلمين الجدلية الجافة قد جنى عليها وجنى على المسلمين : << كانت العقائد عند أسلافنا عواطف مستقرة في القلوب ومشاعر مستولية على النفوس ، فلما أن صارت عندنا جدلا وكلاما ضعف إيمان الأمة وتسرب إلى دينها الخلل والوهن >>[31] .والإمام حسن البنا لا يقتصر في تقرير العقيدة على نصوص الوحي المعصومة فقط ، بل يضم إليها المعرفة العقلية باعتبارها المصدر الثاني للمعرفة ، وذلك وفق قاعدة موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ودرء تعارض العقل والنقل : << والإسلام يحرر العقل ، ويحث

---

(30) البشير ، عصام أحمد ، منهج الإمام البنا في العقيدة ، ص12

(31) البنا ، حسن ، العقائد ، ص4 ـــ 5

على النظر في الكون ويرفع قدر العلـــم والعلماء ويرحـــب بالصالح النافع من كل شئ >>[32] .

وعليه فهو يحبذ الاستفادة من الحقائق العلمية المعاصرة لإقامة الحجـــة على الخلق ، وتثبيت أهل الإيمان ، لأن الإيمان يتضافر بتظافر الأدلة : << إن كل هذه العقائد يؤيدها العقل ويثبتها النظر الصحيح ولهذا شرف الله تعالى العقـــل بالخطـــاب وجعلـــه مناط التكليف وندبه إلى البحث والنظر والتكليف >>[33] وذلك فـــي حدود ما يتوافق مع القرآن والسنة دون إفراط في التأويل أو التعطيل : << وقد يتناول كل من النظر الشرعي والعقل مالا يدخل في دائرة الآخر ولكنهما لن يختلفا في القطعي ، فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة ، ويؤول الظني منها ليتفق مع القطعي . فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار >>[34] .

وهذا هو الاتجاه نفسه الذي نحاه محمد البشير الإبراهيمي (ت 1965 م) حين قرر أنه مما يتصل بأمراض المسلمين علم الكلام الذي شغل الناس عن القرآن والسنة الصحيحة ، وأدخلهم في متاهات الاستدلال العقلي الذي أورثهم ضعف العقيدة وفساد الأخلاق والأعمال : << إن هذه القواعد الجافة التي لا صلة بينها وبين النفس إنما تنفع في الصناعات الدنيوية ، أما في الدين فإنها لا تغني غناء وقد أفسدته منذ أصارها الناس عمدة في فهمه حتى ضعف إيمانهم وضعفت تبعا له إرادتهم وأخلاقهم ، وكيف يفلح من يعدل في تفهم الإيمان عن الآيات القرآنية إلى قولهم إن الإيمان هـــو التصديق وأن النطق شطر أو شرط

---

[32] البنا ، حسن ، العقائد ، ص6

[33] المصدر نفسه ، ص381

[34] المصدر نفسه ، ص6

فيه ... إلى آخر القائمة ؟ وكيف يكون مؤمنا ـــ حقا ـــ من يبني إيمانه على هذا الجرف الهاري ؟>>[35]

بل إنه يرى أن معرفة علم الكلام وتعلمه يدخل في باب إعنات النفس وتضييع الوقت فيما لا يجدي [36] ! لأنه إنما دخل الفكر الإسلامي عن طريق الفلسفة اليونانية التي أثارت قضية البحث في الإلهيات على الطريقة العقلية الصرفة بما غذت بـــه المتكلمين من الأنظار المختلفة وأمدهم به من طرائق الجدل وقوانينه [37] .

وهو لا ينكر أن بشأة علم الكلام كانت في أول أمرها دفاعية ،هدفها صيانة العقيدة من موجات الغزو الفكري التي اجتاحتها ،لكن هذا العلم ما لبث أن انحرف عن هدفه الأصيل وراح يبحث في أمور اعتقادية غيبية اعتمادا على الفلسفة اليونانية وقواعدها فسقط في مزلق التأويل وتمجيد الأحكام العقلية على حساب النصوص النقلية ، ولذلك فإنه يرى أنه كان سببا في تفرق المسلمين بما أثاره من قضايا الإلهيات والعقائد .

وفي ضوء المراجعة التي قام بها الإبراهيمي للتراث الحضاري الإسلامي خرج بنتيجة مفادها أن الفكر الإسلامي قد خسر بوجود علم الكلام أكثر مما ربح ، لأنه شغل نخبة هامة من علماء الإسلام الأفذاذ ، وصرف جهودهم إلى الجدل الفارغ والمناظرات العقيمة التي لا تسفر في كل الأحوال عن منتصر أو منهزم [38] .

---

[35] آثار الشيخ محمد البشير الابراهيمي ، ج1 ، ص232

[36] المصدر نفسه ، ج1 ، ص232

[37] المصدر نفسه ، ج1 ، ص95

[38] المصدر نفسه ، ج1 ، ص98

وتمنى لو أن هؤلاء العلماء استغلوا ذكاءهم وعبقريتهم في ميادين علمية أخرى لزاد ذلك في الفكر الإسلامي تراثا عظيما : << ويمينا لو أن تلك الجهود التي تفرقت على الكلام تألفت على جهة أخرى لفتحت في العلم فتحا أغر زاهرا ، ولتعجلت به الفخر للإسلام وأهله >>[39] وهو يأسف لضياع جهود العلماء المسلمين في مباحث علم الكلام فيقول : << واحسرتاه على ذلك الذكاء الذي كانت تكاد تشف له حجب الغيب : ذكاء أبي بكر الباقلاني وفخر الدين الرازي ، وأبي الهذيل وابن المعلم وقد ضاع فيما لا تعود على الإسلام منه عائدة ولا تنجرّ منه فائدة >>[40] .

وبناءا عليه ، فقد انتقد بشدة تدريسه في الكليات الإسلامية ، وعاب على المسؤولين عن التعليم تضييع أوقات الطلبة في اجترار هذا التراث الذي لم يعد هناك سبب وجيه لإحيائه وشغل الأذهان به، وتجديد الخلافات التي مزقت وحدة الأمة: << ومن المحزن أن دراسة علم التوحيد حتى في كلياتنا الراقية كالأزهر والزيتونة لا زال جارية على تلك الطرائق وفي تلك الكتب ولا تزال تقرر فيها تلك الآراء ولا تزال تذكـــر فيها أسماء تلك الفرق التي لم يبق لها وجود . ويستعرض سيدنا المدرس تلك الآراء ثم يدحضها ثم يقيمها ثم ينقضها ، وتقطع أوقات الطلبة المساكين في ذلك وياضيعة الأعمار >>[41] .

وكان الأولى بهذه الكليات ـــ في نظره ـــ أن تطوي صفحات تاريخ علم الكلام ومعاركه ، وتلتفت إلى عصرها الحديث فتسايره بمواجهة الفلسفات المادية الحديثة التي غزت ديار المسلمين ، وشككت في عقائدهم ، وبلبلت

---

[39] آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ج1 ، ص99

[40] المصدر نفسه ، ج1 ، ص98

[41] المصدر نفسه ، ج1 ،ص97

أفكارهم وأن تعود إلى الأصول الأولى للإسلام والتي هي الكتاب والسنة فتبني عليها معتقداتها وأفكارها ،وتنطلق منهما لتحدد موقعها في هذا العالم الذي تتصارع فيه الأفكار والنظريات لتثبت جدارة العقيدة الإسلامية بالبقاء وقوتها وفعاليتها : << أما الشبهات التي يوردها كل يوم ملاحدة العصر ومبشرو المسيحية على الإسلام ، ويفتنون بها العلماء فضلا عن العوام فإن كلياتنا ــ العلمية الدينية ــ ومدرسيها لا يعيرونها أدنى اهتمام ولا يعمرون بها وقت الطلبة فيا للفضيحة ! >>[42] .

والبديل لعلم الكلام هو القرآن والسنة اللذان يغنيان المسلم عن كل ماعداهما : << فتوحيد الله مقرر في القرآن بأجلى بيان وأكمل برهان ، وصفاته لا يطمع طامع أن يأتي في إثباتها بأكمل مما أتى به القرآن . وطريقة القرآن في التتريه أقوم طريقة ، وقد جرى عليها الصحابة فكانوا أكمل الناس توحيدا ، مع أنهم لا يعرفون الجوهر والعرض ، وهل يبقى زمانين،ولا الكم ولا الكيف بمعانيها الفلسفية الدقيقة >>[43] وهي الطريقة المثلى التي تزرع الإيمان في نفس المسلم : << فيأتي منه مسلم سلفي موحد لربه بدلائل القرآن كأحسن ما يكون المسلم السلفي ، ويستدل على ما يعتقد في ربه بآية من كلام ربه ، لا بقـول السنوسي في عقيدتـه الصغـرى : أما برهان وجوده تعالى فحدوث العالم >>[44] .

وقد اتخذ سيد قطب (ت 1966 م) موقفا مشابها ، فهو يرى أن علم الكلام نشأ من جراء الخلافات السياسية التي تحولت إلى خلافات كلامية راحت

---

[42] آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ج1 ، ص98

[43] المصدر نفسه ، ج1 ، ص98

[44] ابن باديس ، العقائد الإسلامية ، تصدير : محمد البشير الابراهيمي ، ص8

تؤوّل النصوص المعصومة من الكتاب والسنة وتنحرف بها لتؤيد بها توجهها السياسي أو المذهبي . لذلك لم يكن طرحها للعقائد طرحا خالصا ، بل كان مشوبا بكثير من الأفهام المنحرفة ، ثم اشتغل الناس بالفلسفة الإغريقية والمباحث اللاهوتية بعد أن << خلت حياتهم من هموم الجهاد ، واستسلموا لموجات الرخاء >>[45] . وفتنوا بشروح فلسفة أرسطو فحاولوا : << إنشاء علم الكلام على نسق المباحث اللاهوتية مبنية على منطق أرسطو >>[46] ، وهذه ــ في رأيه ــ الخطوة الحاسمة التي أبعدتهم عن التصور الإسلامي للعقائد ، وجعلتهم يخاطبون الفكر البشري : << خطابا باردا مصبوبا في قالب المنطق الذهني >>[47] ، لأن الفرق بين منهج العقيدة ومنهج الفلسفة شاسع ، لذلك كانت محاولة التوفيق بينهما فاشلة : << ونشأ من هذه المحاولات تخليط كثير ، شاب صفاء التصور الإسلامي ، وصغر مساحته وأصابه بالسطحية ، ذلك مع التعقيد والجفاف والتخليط ، مما جعل مباحث علم الكلام غريبة غربة كاملة عن الإسلام ، وطبيعته ، وحقيقته ، ومنهجه ، وأسلوبه >>[48] .

وهذه المعالجة العقلية للقضايا العقيدية هو الذي جردها من حيويتها وقتل فعاليتها في نفوس المسلمين وصيرها حسابات ذهنية جافة لا تهز نفسا ولا تدفع إلى العمل : << لابد أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة . إذ أن محاولة

---

[45] قطب ، سيد ، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، ص14

[46] المصدر نفسه ، ص15

[47] المصدر نفسه ، ص15

[48] المصدر نفسه ، ص16

عرضها بأسلوب الفـلسفة يقتلها ويطفئ إشعاعها ويقصرها عـلى جانب واحد من جوانب الكينونة الإنسانية الكثيرة >>[49] .

وعلى هذا الأساس ،رفض التراث الذي خلفه لنا المتكلمون جملة وتفصيلا ،ولم ير فيه أي خير يفيد العقيدة ، ودعا إلى استمدادها مباشرة من منابعها الأصلية الخالية من كل الشوائب : << وأنا على يقين جازم بأن التصور الإسلامي لن يخلص من التشويه والانحراف والمسخ إلا حين نلقي عنه جملة ... بكل مباحث علم الكلام ، وبكل ما ثار من الجدل بين الفرق الإسلامية المختلفة في شتى العصور . ثم نعود إلى القرآن الكريم نستمد منه مباشرة مقومات التصور الإسلامي مع بيان خصائصه التي تفرده من بين سائر التصورات >>[50] .

وهو يدعو إلى إخضاع كل التراث الكلامي للدراسة التاريخية مع بيان زوايا الانحراف فيه ، وأسباب هذا الانحراف ، وعدم إقحام شيء منه في دراسة العقائد في العصر الحديث ، بل الواجب : << عزل ذلك التراث جملة >>[51] .لأن منهجه غريب عن التصور الإسلامي الأصيل للعقيدة .

أما الإمام عبد الحليم محمود فهو ينتقد بشدة الطريقة العقلية في تناول العقائد ويرى ـــ مثل سيد قطب ـــ أن الانحراف بدأ منذ أخضع المتكلمون عالم الغيب للمقاييس العقلية وقواعد الجدل الفلسفية . ومحاولة وضع موازين لقياس عالم ما وراء الطبيعة قد بدأت منذ عهد سحيق ، عندما سعت الإنسانية إلى حل مسائل الإلهيات والأخلاق بإمكاناتها البسيطة ، غير أن هذه المحاولات على كثرتها وتكرارها قد أثبتت فشلها ابتداء من منطق أرسطو وتلامذته ،

---

[49]) قطب ، سيد ، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، ص24

[50] المصدر نفسه ، ص16

[51] المصدر نفسه ، ص16

ومنطق فرنسيس بيكون مرورا بمنهج ديكارت ، وهذا يدل – حسب الإمام عبد الحليم محمود – أن حل مشاكل ما وراء الطبيعة والأخلاق عن طريق العقل مستحيل ، وأن وضعها موضع البحث العقلي : خطأ [52] .

وعليه ، فإن المصدر الوحيد الذي بإمكان الإنسان أن يعرف منه عالم الغيب هو الوحي الإلهي الذي يعد النافذة الحقيقية التي تمده بما يشبع فضوله في هذا المجال ، وتبعث في نفسه الاطمئنان إلى وجود خالق قادر عالم عظيم يدبر شؤون العالم بحكمة وعدل ، ومن الطبيعي أن لا يستطيع العقل الإنساني أن يدرك بوضوح تفاصيل عالم الغيب ، ويحيط بأسراره لقصوره عن ذلك ، وهو مطالب في هذه الحالة بالتسليم والتفويض .

فالحواس ميدانها الطبيعة ، والعقل ميدانه الفهم الواعي و ولا ابتداع ، وكل ضرب من ذلك يقوم به العقل إنما هو خبط عشواء وسير في متاهات>> [53] .

وقد جاءت الأديان لتفصل فصلا حاسما بين ما يجوز للعقل الخوض فيه وما لا يجوز له ، وعندما أثيرت قضايا الغيب في مجالس الجدل وطرحت على بساط البحث العقلي حدث النزاع والشقاق والانحراف ، وانقسم أصحاب الدين الواحد إلى فرق متشاحنة متصارعة يكفر بعضها بعضا . وما سرى على اليهودية والنصرانية ، أصاب الإسلام من جراء علم الكلام ، على الرغم مما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من نهيه الشديد عن الخوض في الآيات المتشابهات، والتطاول إلى مقام الألوهية..

---

[52] محمود ، عبد الحليم ، الإسلام والعقل ، ص110 .

[53] المصدر نفسه ، ص110

وقد بدأت بوادر الاعتماد على العقل لفهم عالم الغيب تغزو المجتمع المسلم منذ : << أن تسللت الفلسفة اليونانية - كمكروب خبيث- إلى الجو الإسلامي تسللت في عهد المأمون . وتولى كبر هذا التسلل المأمون ، وشجعه على ذلك معتزلة عصره ، وقابل المؤمنون ذلك بكثير من النفور ، وحق لهم ذلك ، فما كان منطق الدين ولا منطق الفطرة السليمة يقضي بأن تكون راية العصمة ... مرفوعة ترفرف على ربوع الأمة الإسلامية فنميل بهذه الراية قليلا أو كثيرا لنرفع بجوارها راية أرسطو أو راية أبيقور>>[54] .

وعندما اختلفت الآراء حول القضايا الغيبية باختلاف العقول حدث الانقسام والتنازع والفرقة ، فضعف تبعا لذلك الإيمان ، وذهبت مشاعر القداسة والرهبة والإجلال للذات الإلهية بعد أن سمح العقـــل لنفسه باقتحام حرمها بأدواته العاجزة ، وإمكاناته المتواضعة.

والإمام عبد الحليم محمود يعتقد أن أسلم طريق لأخذ العقيدة يكمن في اتباع الآيات المحكمات في فهم ووعي وتأييد لأنها ليست مثار جدل أو خصومة والإيمان بالمتشابه كما ورد ، وعدم تأويله : << فإن تتبع المتشابه إنما ينشأ عن القلوب التي تلونت بالزيغ والانحراف وهي التي تتبعه ابتغاء الفتنة >>[55] ،

ثم استنفار ملكات الإنسان النفسية ، بتصفية القلب من الآثام وتزكية النفس واستخلاصها لله : << وإذا ما صفت الروح، وتزكت النفس زال عن البصيرة ما تراكم عليها من صدأ كان يحجبها باستمرار عن أداء وظيفتها... وأصبحت محلا للإلهام والمعرفة المستنيرة في عالم ما وراء الطبيعة وكلما زادت تزكية النفس أصبح الشعور بعالم ما وراء الطبيعة وأصبح التمييز بين الخير

---

[54] محمود ، عبد لحليم ، الإسلام والعقل ، ص134

[55] المصدر نفسه ، ص121

والشر ميسورا واضحا >>[56] وهي الطريقة القرآنية التي سلكها الرسول صلى الله عليه وسلم في تربية أصحابه.

ويحدّد ثلاث قضايا جوهرية شغلت علم الكلام ، وخاض فيها المتكلمون وأسفر جدالهم فيها عن تفرق الأمة الإسلامية وهي : مسألة القضاء والقدر ، ومسألة الصفات ، ومسألة البحث في وجود الله . وهي المسائل التي ما كان ينبغي لهم أن يتنـــــاولوها بعقولهم ، وهو يدعوا إلى إلغائها تماما من مباحث علم الكلام لعدم جدوى كل الركام الذي قيل فيها ، ولاستئثار الله عز وجل بعـــلم تفاصيلها ، والوقوف في كل هذه عندما وقف عليه السلف الصالح

ومن العلماء المحدثين الذين رفضوا علم الكلام ووجهوا سهام النقد له ، الشيخ محمد الغزالي(ت **1996** م) الذي اجتهد في إحياء العقيدة الإسلامية على طريقة السلف ، وبذل جهودا محمودة لتنقيتها مما علق بها من خرافات وبدع ، وما شابها من تصورات منحرفة طوال قرون التخلف والانحطاط . وكانت له مأخذ عديدة على منهج علم الكلام في بحث العقائد منها :

ـــ أن علم الكلام علم نظري بحت ، ينظم المقدمات ويستخلص النتائج مثل الآلات الحاسبة في عصرنا الحاضر . والعلم الذي يقوم على الاستدلالات العقلية لا يمكنه أن يُكَوِّنَ العقيدة التي لا تعتمد على العقل فقط ، وإنما تخاطب القلب والعقل معا ، وتستثير العاطفة مثلما تستثير الفكر . فالدارس لعلم الكلام يذكر طائفة من الأدلة على الوجود الدائم « لواجب الوجود » : << ولا يستشعر في قرارة نفسه عظمة الخالق المتعال ، أو يختلج في بدنه عرق من الرغبة أو الرهبة نحو من سَوَّاهُ ، وألهمه فجوره وتقواه >> [57] ولعل هذا الجفاف

---

[56] محمود ، عبد لحليم ، الإسلام والعقل ، ص111 ـــ 112

[57] الغزالي ، محمد ، عقيدة المسلم ، ص6 .

العقلي ، المغرق في الاستدلال المنطقي هو الذي نفّر العامة من العقيدة ، وجعلهم يفزعون إلى علـــوم التصـــوف التي لم تكن ــ في رأيه ــ أرحم منه لأن : << التصوّف ميدان كثـــير المزالـــق ، وشطحات السائرين فيه أكثر من سدادهم >>[58] .

ــ أن الظروف التي نشأ فيها علم الكلام والتي اصطبغت بالفتن السياسية وانقسام المسلمين إلى فرق متعدّدة ، جعل الجو الذي تم فيه تقرير العقائد جوا ملوثا بالأحقاد والمـــحن : << وفي ضجيج الخصومة السافرة يعسر البحـــث عن الحقيقة ولو أمكـــن الوصـــول إليها فإنه يصعب الاقتناع بها >>[59] . وقد كان الشعور السائد خلال هذه الفترة التسابق في حشد الأدلة النقلية للانتصار لمذهب معين أو فرقة ما : << ومن الغفلة أن نحسب أن تكوين العقيدة يتم في مجلس مناظرة تتصيد فيها النصوص وينشد فيها الغلب ، ويلعب فيها بالألفاظ ، ويستغـــل منطـــق أرسطـــو في المخاتلة وإيقاع الخصم أمام العامة >>[60] .

ــ أن مباحث علم الكلام قد طغت عليها الفلسفات الغربية التي نقلها السريان عن اليونان ، مما جعلها تزدحم بالاصطلاحات الغريبة التي كادت تذهب بعناصر العقيدة وجعلتها تتيـــــه وسط ركام من النقول والأقيسة والمصطلحات . وهي من ناحيـــة الشكل : << في توزيع مضطرب بين متن

---

[58] الغزالي ، محمد ، عقيدة المسلم ، ص6 .

[59] المصدرنفسه ، ص6 .

[60] المصدرنفسه ، ص6 .

وشرح وحاشية وتقرير ، وفي لغة ركيكة اللفظ ، سقيمة الأداء >>[61] لـــذلك فقد باءت بالفشل في أداء رسالتها شكلا ومضمونا.

والبديل الصالح الذي يطرحه الشيخ محمد الغزالي ليخلف علم الكلام بكل ما يحمل من أخطاء وهنات ، ويصطبغ به من مخلفات قرون الضعف والوهن ، هو النظرة السلفية التي كانت سمة الجيل الأول الذي كان من أهم ميزاته : << أنه لم يتقعر في بحوث ما وراء المادة ، ولم يحاول استكناه الغيبيات ، بل كان جيلا مستقيم الفطرة ، سوي النظرة أحسن علاقاته بالله في العبادة الخاشعة ، وأحسن علاقته بالناس فيما التزمه من خلق حسن وعدالة مطلقة . وقد أعانه ذلك على إبلاغ رسالة الإسلام فشرق وغرب ، وتألق وتأنق ... ولو أنه اشتغل بالفلسفة اللاهوتية والمناظرات الكلامية ما خرج من جزيرة العرب ، بل لأرسلت له فارس أو الروم كتيبة من كتائبها تركته شذر مذر بين الرمال والتلال >>[62] .

وهو يتفق مع سيد قطب في كون خلافات المتكلمين ومعاركهم لا تتعدى الترف العقلي الذي لم يقدر أصحابه خطورته على عقيدة الأمة ووحدتها وأن تخفف المسلمين من الجهاد وخلودهم إلى الراحة والرفاهية هو الذي مال بهم إلى هذا النوع من اللغو العابث : << وأوجد الفراغ مجالس كلامية كثيرة كان لها في تاريخنا وكياننا أثر رديء . ونستطيع القول بأن العراك الذي نشب كان جهادا في غير عدو أو كان حربا عمياء ، أذكى نارها المراء والغباء >>[63] .

---

[61] الغزالي ، محمد ، عقيدة المسلم ، ص9 .

[62] الغزالي ، محمد ، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ، ص109

[63] المصدر نفسه ، ص110 .

وعليه فإن كثيرا من القضايا التي أثارها المتكلمون لا معنى لها ولا فائدة منها ، وهي قضايا طفيلية تسللت إلى ميدان العقيدة والعبادة فشغلت العقل الإسلامي طويلا : << و تركت ذيولا أطول في تفريق الكلمة وتباعد القلوب >>[64] وأنها ليست من الإيمان : << ولو مات المسلم وهو لم يدر من هذه القضايا حرفا ما حاسبه الله على شيء >>[65] ، وهو يعتقد أن انشغال علماء الكلام بهذه المقولات ، وشغل الناس بها قد جعلهم يفرطون في كثير من الفضائل والصالحات .

وانطلاقا من موقفه المعارض لعلم الكلام تناول الغزالي بالدراسة أركان العقيدة الإسلامية من إيمان بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، مؤثرا مذهب السلف ، معتمدا على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة مع دعم ذلك بالنظر العقلي الثاقب ، ومخاطبة الوجدان خطابا رقيقا شفافا ، واستثارة كوامن التفكير في الإنسان ، ودعوته للبحث في أعماقه عن مظاهر فطرته السليمة التي فطر عليها ، والاستئناس في ذلك كله بما توصل إليه العلم من نتائج قطعية يؤيدها الوحي المعصوم ، وتقوم حجة ناصعة على صحة العقائد الإسلامية .

وهذا الاتجاه السلفي نفسه هو الذي نجده عند الشيخ يوسف القرضاوي الذي يؤكد عند حديثه عن دراسة العقيدة وجوب استبعاد علم الكلام استبعادا تاما لكونه غريبا عن العقل المعاصر الذي لم يعد يستسيغه ، ولأن ما فيه من حجج وبراهين لم تعد قادرة على مواجهة شبهات الفلسفة الحديثة وما تثيره من مشكلات فكرية ، لذلك نجده يقول : << لا نريد بدراسة

---

(64) الغزالي ، محمد ، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ، ص129 .

(65) المصدر نفسه ، ص131 .

العقيدة دراسة منظومات المتأخرين في علم التوحيد وشروحها مثل الجوهرة أو الخريدة ونحوهما ، ولا دراسة العقائد النسفية وما يتبعها من شروح وحواش ، ولا دراسة المطولات الكلامية مثل شرح المقاصد أو شرح المواقف وما شابههما فلم يعد كثير من مباحث هذه الكتب يحتاج إليه العقل المعاصر أو يستسيغه >>[66]

وهو يرى أن كتب المتكلمين تغلب عليها صفة الغموض ، وتشيع فيها العبارات والاصطلاحات التي هي أقرب إلى الطلاسم والألغاز منها إلى الكلام الصريح المفهوم ، وعليه فهي تحتاج إلى جهد ذهني جبار لفهمها واستيعابها بالإضافة إلى ما شابها من أساليب الفلسفة اليونانية الغريبة عن الروح الإسلامية << لهذا يجب توفير الجهد الذهني الضخم الذي يبذل في هضم هذه الكتب وحل ألغازها وفك طلاسمها لما هو أجدى في الدفاع عن العقيدة وتثبيتها >>[67]

لذلك ، فإن هذا العلم لا يمكنه أن يضطلع بمهمة بيان العقائد والدعوة إلى الإسلام في هذا العصر لقصوره عن ذلك ، والشيخ القرضاوي يفضل أن تدرس قضايا العقائد وفق منهاج معين يتتبع فيه خطوات السلف الصالح ويتلخص فيما يلي :

1 ــ أن يكون كتاب الله وصحيح السنة هما المصدران الوحيدان لتقرير العقائد الإسلامية بعيدا عن كل الشوائب والزوائد التي لحقت بها على مر العصور ، واستبعاد كل المدارس الكلامية مهما كان قربها منهما .

2 ــ عدم الاقتصار في بناء العقيدة على العقل وحده كما فعل المتكلمون ، والاسترشاد بالهدي القرآني في هذا المجال ، بالمــزاوجة بين العقل

---

[66] القرضاوي ، د. يوسف ، ثقافة الداعية ، ص126 .

[67] المصدر نفسه ، ص126 .

والقلب ، فنأمن الانزلاق في متاهة الاستدلالات الفلسفية والحجج المنطقية الجافة ونتفادى ـــ في الوقت نفسه ـــ الوقوع في الشطحات الصوفية المغرقة في الاعتماد على الالهامات والمشاعر اللاغية للعقل .

3 ـــ إعطاء الأولوية في الاستدلال بآيات القرآن الكريم في مجال الوحدانية والنبوة والملائكة والبعث والجزاء وغيرها ، مع تعضيدها بما يوافقها من العقل .

4 ـــ الاهتمام بما جد على الساحة المعاصرة من فلسفات إلحادية ومذاهب فكرية تستهدف العقيدة بالمسخ والمحو والاشتغال بقضايا العقيدة الكبرى مثل وجود الله وتوحيده والنبوة والحياة الأخرى . وطيّ صفحة الماضي وما أثاره علم الكلام فيه من قضايا جانبية لا تخدم المسلمين في العصر الراهن مثل : خلق القرآن ، وقضية الصفات وعلاقتها بالذات .. إلخ . والشيخ القرضاوي يقترح أن يكون تراث علم الكلام محصورا بزاوية معينة يعنى بدراسته المختصون فقط كالمهتمين بتاريخ الفكر الإسلامي .

5 ـــ الاستفادة من ثقافة العصر ، وتوجيه المسلمين إلى التضلع في ميادين العلوم البحتة كالفلك والطب والفيزياء وغيرها لتأييد قضايا العقيدة وتثبيتها .

6 ـــ الابتعاد عن التأويل والتعطيل والتشبيه ، والوقوف عند آيات الصفات والآيات المتشابهات عند الحد الذي وقف فيه السلف الصالح مكتفين بما وصف الله به نفسه من غير تكييف ولا تمثيل .

7 ــ تتبع شبهات المبشرين والمستشرقين والشيوعيين وغيرهم من خصوم الإسلام وأتباعهم ، والاجتهاد بالرد عليهم ردا علميا فكريا يتفق مع منطق العصر وعقليته [68]

وبعد أن استعرضنا مواقف بعض العلماء المحدثين من علم الكلام نخلص إلى القول بأن هذه المواقف وإن اختلفت فهي لا تتناقض ولا تتعارض ، فكل واحد نظر إلى علم الكلام من زاوية خاصة به مع اعترافهم جميعا بأن هذا العلم قد اعترته ــ في بعض مراحله ــ نقائص كثيرة ، لكنه لا يخلو من إيجابياتى إذا حددت مناهجه وضبطن مهماته الفكرية .

---

[68] القرضاوي ، د. يوسف ، ثقافة الداعية ، ص127 ــ 128 .

خاتمة

لقـــد حاولـــنا في هـــذه الدراسة أن نتتبع الحركة الكلامية في الفكر الإسلامي القديم ، و أن نكشـــف عن تداعياتها المختلفة ، و نبين مدى أصالتها و انســـجامها مع الرؤية الإسلامية ، و الدور الحضاري الكبير الذي قامت به لمواجهة كل أشكال الغزو الديني و الفكري .

و قد تجلت لنا أهمية علم الكلام في التاريخ الإسلامي عندما استعرضنا في فصول الكتاب تعريفه ، و نشأته ، و الظـــروف التي مهـــدت لهذه النشأة ، و المراحل التي مر بها ، و طبيعة الموضوعات و القضايا التي طرحها على بساط الـــبحث و المناقشـــة ، و المـــنهج الـــذي اعـــتمده المتكلمون في معالجة هذه الموضـــوعات و القضايا ، و تبين لنا من كل ذلك أن علم الكلام قد حمل على كاهله ـــ في ظـــروف تاريخيـــة حرجة ـــ عبئا كبيرا ، تمثـــل في دفاعه القوي و المســـتميت عـــن العقائـــد الإســـلامية التي تعرضت ـــ أثناء انفتاح المجتمع الإســـلامي الوليد على الثقافات الأجنبية ـــ لسلسلة من الهجمات العنيفة التي استهدفت تشويهها و زعزعة أركانها .و قـــد استطـــاع المتكلمون أن يثبتوا في مـــواقعهم ، و أن يظهروا قدرة فائقة على احتواء الشبـــهـــات و دحضها ، و الانتصار للعقيدة الصافية التي وضع القرآن الكريم قواعدها و أرسى دعائمها ، و أن يقضوا على الأفكار الدخيلة الغازية ، و يهزموها هزيمة فكرية منكرة ردها على أعقابها .

و لئن جره النظر العقلي ـــ في مرحلة متأخرة ـــ إلى الإغراق في تمجيد العقـــل و أحكامه ، و تجاوز الميدان الذي نشأ من أجله ، فإن ذلك لا يطعن في الـــدور الحضـــاري المتميـــز الذي قام به ، و لعل ذلك ما حدا بعدد كبير من

العلماء و المفكرين المحدثين إلى الدعوة إلى تجديده ، بتخليصه من الشوائب التي علقت به ، و الاعتماد عليه في رد الفلسفات الإلحادية ، و موجات الغزو الفكري الحديثة التي تتجه سهامها بشكل منظم و مكثف ضد العقائد الإسلامية

أما الفصل الذي خصصناه لدراسة أهم المصادر الكلامية فقد كشف لنا هو أيضا عن التنوع الفكري و الثراء المعرفي الذي تميز به علم الكلام كما عبرت عنه مذاهبه المتعددة ، و مدارسه المختلفة ، و فرقه الكثيرة .

فبعد تصفحنا لهذه المصادر و استعراضنا لمضامينها ، برزت بقوة عبقرية المتكلمين في مواجهة مختلف العقائد و الديانات ، سواء منها الأديان ذات المصدر السماوي أو الوضعي عندما وفقوا أيما توفيق في الاستيعاب العميق الشامل لها ، و تحديدهم الدقيق لمواطن الضعف و التحريف فيها ، و قدرتهم الفائقة على نقض حججها و براهينها ، و إثبات الحجية للعقائد الإسلامية .

كما تجلى لنا بوضوح تنوع الموضوعات و القضايا و المسائل التي عالجها المتكلمون ، و التي كانت استجابة حية للتحديات المختلفة التي واجهت الإسلام ، و ردا قويا على الهجمات التي تعرض لها ، و الشبهات التي كانت ترد عليه من كل حدب و صوب . و هي أيضا ثمرة الجهود العقلية الجبارة التي حافظت على العقائد الإسلامية من التحريف و التزييف ، و منعت أن يتطرق إليها الشرك و الانحراف ، و لولاها لأصاب هذه العقائد ما أصاب اليهودية و النصرانية .

و كشفت لنا هذه المصادر كذلك عن مدى استثمار المتكلمين للعقل وقدراته الكبيرة في خوض معاركهم المصيرية ، مستندين في ذلك إلى المرجعية الإسلامية التي تعلي من مقامه و تدعو إلى بناء الحياة عليه . فقد استطاع المتكلمون أن يستغلوا قدراتهم العقلية استغلالا مثاليا ، و أن يفجروا

طاقاته الخلاقة ، و أن يوظفوا ذكاءهم الخارق إلى أبعد الحدود لنصرة فكرهم ، و تأييد وجهات نظرهم ، و توهين حجج خصومهم ، و الانتصار لمقولات الوحي .

و قد ساعدت هذه الحركة الفكرية النشيطة التي أتيح لها أن تأخذ من كل علم بطرف ، و أن تستوعب أنواعا مختلفة من الأديان و العقائد ، و أ، تطلع على عدد هام من الفلسفات الإنسانية ، على بروز كوكبة من الفلاسفة و المتكلمين الذين سجلوا حضورهم التاريخي القوي بما أبدعوه في هذا الميدان ، حيث وصلوا بتفكيرهم المتميز إلى مراتب عليا من العقلانية و التأمل الفلسفي ، تضاهي في عمقها و أصالتها ما أنتجه اليونان إن لم نقل أنها تفوقه .

و مما لا شك فيه ، أن هذه الثروة الفكرية التي وصلتنا عبر القرون ، و التي تمخضت عن مواجهة حضارية مشهودة بين العقائد الإسلامية من جهة ، و الأديان و الفلسفات المختلفة من جهة أخرى ، بحاجة ماسة إلى أن تتحول إلى موسوعة تضم بين دفتيها أمهات المصادر الكلامية و الفلسفية لتسهل الاستفادة منها ، مع التنبيه إلى أن هناك أعدادا كبيرة من هذه المصادر ما زالت مخطوطة تنتظر جهود المحققين و الباحثين ، و أعدادا أخرى تحتاج لإفرادها بدراسات أكاديمية مستقلة ، تميط اللثام عن قيمتها الفكرية و التاريخية .

و هذا البحث الذي قمنا به ، محاولة للإحاطة بهذه المدرسة الفكرية الكبيرة التي كانت ثمرة يانعة من ثمرات الحضارة الإسلامية ، مثلها في ذلك مثل الحركة الفقهية بمذاهبها المتعددة ، و الحركة الصوفية بمدارسها المختلفة ، و الحركة الأدبية بتياراتها الثرية المتنوعة ، و الحركة العلمية التي بلغت مداها في كثير من المجالات و غيرها من المظاهر المتألقة التي طبعت هذه الحضارة الخالدة المعطاء .

قائمة المصادر و المراجع

- الإبراهيمي، محمد البشير

1- آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر ط1، 1978م.

2- آثار محمد البشير الإبراهيمي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.

- آل جعفر، د. مساعد مسلم عبد الله.

3- أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1 1984م.

- أزمرلي، إسماعيل حقي.

4- علم الكلام الجديد، تحقيق ونشر، د. صبري خدمتلي، طبعة أنقرة، تركيا 1981م.

- الإسكندري، أحمد بن المنير.

5- الانتصاف من الكشاف على هامش تفسير الكشاف، المطبعة العامرة الشرفية، ط1 1307هـ.

- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل.

6- الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق، عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق 1981م.

7- استحسان الخوض في علم الكلام، نشرة الأب مكارتي اليسوعي، بيروت، 1953م.

8- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق، محي الدين بن عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1969م.

- أمين أحمد.

9- ظهر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط3، 1962م.

- أمين، بكري شيخ.

10- التعبير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، ط4، 1980م.

- الأيجي، عبد الرحمن بن أحمد.

11- المواقف في علم الكلام، عالم الكتاب، بيروت.

- ابن باديس، عبد الحميد.

12- العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية، جمع وتعليق، محمد الصالح رمضان، دار الكتاب الجزائري، الجزائر.

13- تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، جمع وترتيب وإعداد وتعليق، د. توفيق محمد شاهين، ومحمد الصالح رمضان، دار الفكر، دمشق، ط3، 1979م.

- البغدادي، عبد القاهر بن الطاهر بن محمد.

14- أصول الدين، دار الكتب العلمية، بيروت. ط3، 1981م.

15- الفرق بين الفرق. تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة للطباعة و النشر، بيروت.

- بدوي ، عبد الرحمان

16 - مذاهب الإسلاميين .بيروت ، 1971 م

- التفتازاني، السعد مسعود بن عمر.

17- شرح العقائد النسفية، تحقيق، كلود سلامة، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، دمشق، 1974م.

- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس احمد.

18- مجموع الرسائل الكبرى، مطبعة القاهرة، 1323هـ.

19- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة و القدرية، طبعة حجرية، 1303هـ.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر.

20- البيان و التبين. تحقيق، د. عبد السلام هارون، ط3، بيروت، 1969م.

21- الحيوان، تحقيق وشرح، عبد السلام هارون، ط3، بيروت، 1969م.

- الجرجاني، السيد الشريف علي بن محمد.

22- التعريفات. تحقيق وتعليق، د. عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، ط 1 1987م.

- الجويني، د. مصطفى الصاوي.

23- منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، دار المعارف، القـــاهـــرة ط3، 1984م.

- الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله.

24- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تحقيق، د. محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد، مكتبة الخانجي. القاهرة ، 1950م.

25- الشامل في أصول الدين. تحقيق، د. علي سامي النشار و فيصل بدير عون و سهير محمد مختار. منشأة المعارف بالإسكندرية، 1969م.

- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي.

26- لسان الميزان، طبعة الهند 1330هـ.

- الخالدي، د. محمود.

27- العقيدة وعلم الكلام. شركة الشهاب، الجزائر، 1989م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن.

28- المقدمة. دار القلم، بيروت، ط5، 1984م.

- خليفة، حاجي.

29- كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون، دار الفكر، بيروت، 1994م.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد.

30- وفيات الأعيان، تحقيق، د. محمد محي الدين، مطبعة القاهرة، 1948م.

- خان، وحيد الدين.

31- الإسلام و العصر الحديث، دار النفائس، بيروت.

32- قضية البعث الإسلامي، المنهج و الشروط، ترجمة، محسن عثمان الندوي، دار الصحوة، القاهرة، ط**1**، **1984**م.

- الدسوقي، د. محمد.

33- منهج البحث في العلوم الإسلامية، دار الأوزاعي، ط**1**، **1984**م.

- الذهبي، د. محمد حسين.

34- التفسير و المفسرون، دار القلم، بيروت، ط**1**.

- الرازي، محمد فخر الدين.

35- مفاتيح الغيب الشهير بالتفسير الكبير، دار الطباعة العامرة، القاهرة.

- ابن رشد.

36- فصل المقال فيما بين الشريعة و الحكمة من الاتصال، تحقيق، د. محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة.

- زاده، طاش كبرى أحمد بن مصطفى.

37- مفتاح السعادة ومصباح السيادة، راجعه وحققه، كامل كامل بكري، وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، بيروت.

- الزحيلي، د. محمد.

38- مرجع العلوم الإسلامية، دار المعرفة، دمشق.

- الزرقاني، محمد عبد العظيم.

39- مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، بيروت، **1988**م.

- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر.

40- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، **1966**م.

- أبو زهرة، محمد.

41- تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة.

- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الله الوهاب بن علي.

42- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق، عبد الفتاح الحلو، محمود الطناحي، طبعة عيسى البابي، القاهرة، 1964م.

- سزكين، فؤاد.

43- تاريخ التراث العربي، ترجمة، د. فهمي أبو الفضل، مراجعة، د. فهمي حجازي الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر، القاهرة، 1971م.

- أبو سليمان، د. عبد الوهاب إبراهيم.

44- كتابة البحث العلمي و مصادر الدراسات الإسلامية، دار الشروق، بيروت، ط1 1980م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن.

45- بغية الوعاة في طبقات اللغو يين و النحاة. تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية. بيروت.

46- إتمام الدراية لقراء النقاية. ضبطه وكتب حواشيه، الشيخ، إبراهيم العجوز دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1985م.

- الشهر ستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم.

47- الملل و النحل، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1975م.

- الصباغ، محمد.

48- لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، المكتب الإسلامي. بيروت.

- صبحي، د. أحمد محمود.

49- في علم الكلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط5. 1985م.

- ضيف، د. شوقي.

50- العصر العباسي الأول، دار المعارف. القاهرة، ط9، 1986م.

- الطحاوي، أبو جعفر.

51- شرح الطحاوية على العقيدة السلفية، شرح صدر الدين بن أبي العز الحنفي حققها وراجعها جماعة من العلماء، خرّج أحاديثها، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي بيروت. ط**4**، **1391**هت.

- عبده ، محمد.

52- رسالة التوحيد، دار ءحياء العلوم، بيروت، ط**2**، **1977**م.

- عبد الجبار، بن أحمد بن خليل الهمداني الأسد آبادي الملقب بالقاضي.

53- تتريه القرآن عن المطاعن، دار النهضة الحديثة، بيروت.

54- شرح الأصول الخمسة، تحقيق، د. عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة **1965**م.

55- المغني في أبواب العدل و التوحيد- تحقيق، د. مصطفى السقا وإبراهيم مدكور الدار المصرية للتأليف و الترجمة، القاهرة.

- عبد الحميد، د. محسن.

56- تجديد الفكر الإسلامي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، **1985**م.

- عبد الرزاق، د. مصطفى.

57- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، طبعة القاهرة، **1944**م.

- عزقول، د. كريم.

58- العقل في الإسلام، بيروت، **1946**م.

- عليان وزميله الدوري.

59- أصول الدين الإسلامي، وزارة التعليم العالي، جامعة بغداد، ط**2**، **1981**

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد.

60- إحياء علوم الدين ، دار المعرفة، بيروت، **1982**م.

61- الاقتصاد في الاعتقاد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط**1**، **1983**م.

62- قواعد العقائد، أعده للطبع، رؤوف شلبي وموسى محمد بن علي. صدر عن مجمع البحوث الإسلامية، دار النصر للطباعة، القاهرة. **1970**م.

63- المنقذ من الضلال و المفصح عن الأحوال. تحقيق، د. عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

- الغزالي، محمد.

64- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، دار الكويت، ط2، 1983م.

65- عقيدة المسلم، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1985م.

- الفارابي، أبو النصر.

66- إحصاء العلوم، تحقيق، د. عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة. 1968م.

- فتاح، د. عرفان عبد الحميد.

67- الفلسفة في الإسلام. دراسة ونقد، مؤسسة الرسالة، بيروت. 1984م.

- فخري، د. ماجد.

68- تاريخ الفلسفة الإسلامية، نقله إلى العربية، د. كمال اليازجي، الدار المتحدة للنشر، بيروت. 1974م.

- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري.

69- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي. المكتبة العلمية، بيروت.

- القاري، الملا علي.

70- شرح الفقه الأكبر. دار الكتب العلمية، بيروت، ط1. 1984م

- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم.

71- الإمامة و السياسة، المكتبة المصرية، القاهرة، ط2.1325هـ.

- القرضاوي، د. يوسف.

72- ثقافة الداعية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 4.1981م.

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري.

73- الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- قطب، سيد.

74- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشرق، بيروت. ط7. 1980

- ابن القيم، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن آبي بكر الشهير بابن القيم.

75- إعلام الموقعين عن رب العالمين، راجعه وقدم له وعلق عليه، طه عبد الرؤوف، دار الجيل، بيروت، **1973**م.

- الكتاني، د. محمد.

76- جدل العقل و النقل في مناهج التفكير الإسلامي في الفكر القديم، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط**1**، **1992**م.

- كرم، يوسف.

77- تاريخ الفلسفة اليونانية، مطبعة التأليف و الترجمة و النشر، **1936**م.

- الماتردي، أبو منصور.

78- كتاب التوحيد.

- مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

79- المعجم الوسيط، دار الحديث للطبع و النشر، بيروت.

- محمود، د. عبد الحليم.

80- الإسلام و العقل، دار المعارف، القاهرة، **1980**م.

- مخلوف. د. عبد الرؤوف.

81- الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، دراسة تحليلية نقدية منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، **1978**م.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين.

82- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، **1948**م.

- المغربي، د. عبد الفتاح.

83- الفرق.

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي.

84- المواعظ و الاعتبار في ذكر الخطط و الآثار، دار الطباعة المصرية المنشأة، بولاق، **1270**هـ.

- مكرم، عبد العال سالم.

85- الفكر الإسلامي بين العقل و الوحي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- ابن المرتضى، أحمد بن يحي.

86- المنية و الأمل، طبعة حيدر آباد، 1316هـ-1902م.

- ابن نباتة المصري، محمد بن محمد.

87- سرح العيون، مطبعة الموسوعات، ط4، 1321هـ.

- النجار، د. عبد المجيد عمر.

88- مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 1992م.

- ابن النديم، محمد بن إسحاق.

89- الفهرست، حققه وقدم له، د. مصطفى الشويمي. الدار التونسية للنشر، تونس. 1985م.

- النشار، د. علي سامي.

90- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف. القاهرة، ط5. 1971م.

- هراس، محمد خليل.

91- ابن تيمية السلفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1. 1984م.

- ابن الوزير اليمني، محمد بن إبراهيم بن علي.

92- البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع، المطبعة السلفية. 1349هـ.

93- ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، طبعة المعاهد، 1349هـ.




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

فهرس الموضوعات